فكر ونهضة

أدبيات النهوض

محسن الآراكي

الصحوة الإسلاميّة







بسم الله الرحمن الرحیم

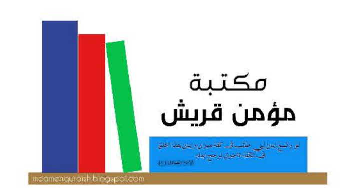


الصحوة الإسلاميّة المعاصرة
الشيخ محسن الآراكي



دار المعارف الحكمية

Dar Al maaref Alhikmiah



ISBN: 978-614-440-042-5

اسم الكتاب : الصحوة الإسلامية المعاصرة

المؤلف : محسن الآراكي

الناشر : دار المعارف الحكمية

إخراج الكتاب : إبراهيم الشحوري

عدد الصفحات : ١٠٤ صفحات

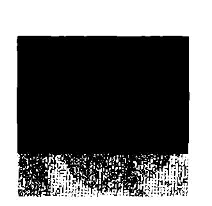
القياس : ١٤/٢١ سم

الطبعة الأولى : ٢٠١٥

الفهرس



مقدّمة الناشر



كثُر في الآونة الأخيرة الحديث عن صحوة شعوب ونهضة أمم، وهذا يعود إلى أنّ هذه الشعوب بدأت تستيقظ من سباتها فتعيَ حاجاتها الضروريّة وتجيد بل تحاول أن تستعيد ما أخذته منها حكومات جائرة عبر الأزمنة حين كانت في حالة من الضعف والاستكانة.

كما أنّ للتطوّرات الاجتماعيّة الكبرى في العالم خلفيّة تأريخيّة وحضاريّة هي حصيلة تراكم معرفيّ وتجارب طويلة دعت المستضعفين للمطالبة بحقوقهم من القوى المستكبرة.

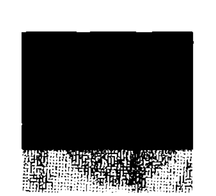
يأتي هذا الكتاب الصحوة الإسلاميّة المعاصرة للكاتب الشيخ محسن الآراكي ضمن سلسلة هذه العناوين التي يفرضها الواقع اليوم ليؤرّخ لحقبات زمنيّة ثلاث: من السيِّد جمال الدين الأفغاني إلى الشهيد السيِّد محمّد باقر الصدر وصولًا إلى الإمام الخميني (قده) وثورته التي غيّرت واجهة الطريق في العالم.

نأمل أن يؤدّي هذا الكتاب مبتغاه من الفائدة ويساهم في تسليط الضوء على هذه الحقبات المفصليّة الزمنيّة.

سكينة أبو حمدان



الصحوة الإسلاميّة المعاصرة: أدوارٌ ورُوّاد



الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

لقد قطعت الصحوة الإسلاميّة منذ ولادتها قبل قرن حتّى الآن ثلاث مراحل أساسيّة:

الأولى: مرحلة الولادة، وهي المرحلة التي يمكن تسميتها بمرحلة اليقظة، إذ بدأت الأمّة تستيقظ من سباتها الطويل الذي استمرّ عدّة قرون، فأخذت تستعيد حياتها، وتهبّ من رقدتها، وكان السيّد جمال الدين الحسينيّ الأسد آبادي المعروف بالأفغانيّ رجل هذه المرحلة ورائدها.

والثانية: مرحلة البناء الفكريّ للأمّة، وصياغة الفكر النظريّ الإسلاميّ الذي يمكّن الأمّة من الصمود في وجه مدارس الفكر الماديّ وأهمّها الشيوعيّة، والاشتراكيّة والرأسماليّة، ويتيح لها بناء نفسها من جديد على ضوء مفاهيم الإسلام ومبادئه، وتعدّ هذه المرحلة مرحلة خطيرة في تاريخ الصحوة الإسلاميّة. وكان رائدها الأعظم في هذه المرحلة ورجلها الأوّل الذي لا يدانيه نظير، الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر قدّس سرّه.

والثالثة: مرحلة الثورة وبناء الدولة وتماثل الأمّة تماثلًا ميدانيًّا، وإعادة حياتها كاملة بكلّ مقوّماتها، وتأسيس الدولة الإسلاميّة في بناء جديد ينسجم مع تطوّرات الزمن ومتطلّبات الحاضر. وكان رائد هذه المرحلة وقائدها الأعظم الإمام الأكبر السيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ قدّس سرّه.

ولا يسعنا في هذا البحث المقتضب أن ندرس كلًّا من هذه المراحل الثلاث وإنجازات روّادها على التفصيل، وإنّما نحاول في بحثنا الموجز هذا إلقاء شيء من الضوء على الدور الذي قام به كلّ من هؤلاء العظماء في بناء الصحوة الإسلاميّة المعاصرة بمراحلها الثلاث.





وسوف نتناول البحث عن كلّ واحد من هؤلاء القادة الثلاثة حسب الترتيب الزمنيّ للمرحلة التي قادها، ونضع البحث عن كلّ منهم ضمن أربعة فصول، نعرض في الفصل الأوّل صورة مختصرة عن حياة كلّ منهم، وفي الفصل الثاني نعرض بإجمال المشروع التغييريّ الذي كان يتبنّاه كلّ منهم، وفي الفصل الثالث نتحدّث عن أهمّ إنجازاتهم، وفي الفصل الرابع نلقي نظرة تقييميّة على الأطروحة والإنجازات التي قدّموها.

محسن الآراكي





المرحلة الأولى:
مرحلة اليقظة، وولادة الصحوة الإسلاميّة



كانت الأمّة الإسلاميّة غارقة في سبات مميت، والجهل والتخلّف المطبق يلفّها من شرقها إلى غربها، وكانت بلاد الإسلام معرضًا لغزو المستعمرين ونهب الطامعين، وكان الأجانب يتصرّفون في مقدّرات هذه الأمّة كما يشاؤون، وحكّام المسلمين وعلماؤهم ورجالهم في غفلة من ذلك أو في حالة من الضعف والعجز وفقدان الحول والقوّة سدّت عليهم سبيل التحرّك والنهوض، هناك كانت الأمّة الإسلاميّة، حين بدأ السيّد جمال الدين نهضته التوعويّة فجاب بلاد الإسلام شرقها وغربها، يحمل الدعوة إلى الحياة والحركة والنهوض، فبدأت المرحلة الأولى من الصحوة الإسلاميّة باستنهاض الأمّة من سباتها واستثارة عناصر القوّة والحياة فيها وكان رائد هذه المرحلة ورجلها الأوّل السيّد جمال الدين الأسد آبادي المعرف بالأفغانيّ.

الفصل الأوّل: صورة مجملة عن حياته

ولد السيّد جمال الدين في شعبان سنة ١٢٥٤ هـ في أسد آبادي من توابع همدان وهي مدينة معروفة في إيران وتوفّي في شوّال سنة ١٣١٤ هـ في إستانبول[1].

قال السيّد الأمين العاملي:

«أمّا بالنسبة إلى الأفغان واشتهاره بالأفغانيّ فمن المشهورات التي لا أصل لها - وربّ مشهور لا أصل له - وسبب اشتهاره بذلك أنّه نسب

١ | السيّد محسن الأمين، **أعيان الشيعة** (بيروت: دار التعارف، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، الجزء ٤، الصفحة ٢٠٦.





نفسه إلى الأفغان في مصر وخلاها، لا إلى إيران وتعمية للأمر، ولولا ذلك لما سمّي بحكيم الإسلام وفيلسوف الشرق، ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة، ولا أنزله الصدر الأعظم علي باشا في إستانبول منزلة الكرامة - إلى أن يقول: - ولا تمكّن الشيخ محمّد عبده أن يصاحبه ويأخذ عنه ويتّخذه مرشدًا وصديقًا حميمًا إلى غير ذلك»[١].

وقال نقلًا عمّا كتبه عنه السيّد صالح الشهرستاني في مجلة العرفان:

«إنّ السيد صفدر والد السيّد جمال الدين جاء إلى طهران مع والده جمال الدين أوائل عام ١٢٦٦ هـ وبعدما مكث فيها ما يزيد على خمسة أشهر سافر إلى العراق ودخلا النجف في عصر الشيخ مرتضى الأنصاري، فاعتنى الشيخ الأنصاري بجمال الدين، وبقي جمال الدين في النجف أربع سنوات»[٢].

وفي كتاب حاضر العالم الإسلاميّ، قال لوثورت ستودارد:

«كان جمال الدين سيّد النابغين الحكماء وأمير الخطباء البلغاء، وداهية من أعظم الدهاة، دافع الحجّة، قاطع البرهان ثبت الجنان متوقّد العزم شديد المهابة، كأنّ في ناسوته أسرار المغناطيسيّة، فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيمًا، وكانت سيرته كبيرة، فبلغ من علوّ المنزلة في المسلمين ما قلّ أن يبلغ مثله سواه، وكان سائحًا جوابًا طاف العالم الإسلاميّ قطرًا قطرًا، وجال غربي أوروبا بلدًا بلدًا فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطّلاع العميق والتبحّر الواسع في سير العالم والأمم، علمًا راسخًا واكتنه أسرارًا خفية واستبطن غوامض كثيرة، فأعانه ذلك عونًا كبيرًا على القيام بجلائل الأعمال التي قام بها»[٣].

وقال الشيخ محمّد عبده في مقدّمته التي كتبها لرسالة السيّد جمال

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٢٠٧.

٢ | **أعيان الشيعة**، مصدر سابق، الصفحة ٢٠٧.

٣ | المصدر نفسه، الصفحة ٢٠٩. عن: **حاضر العالم الإسلاميّ**، ترجمة: عجاج نويهض، الجزء ١، الصفحة ١٣٥.





الدين في الردّ على الدهريّة:

«واستكمل - أي السيّد جمال الدين - الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنّه، ثمّ عرض له سفرًا إلى البلاد الهنديّة فأقام بها سنة وبضع أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضيّة على الطريقة الأوروبيّة الجديدة، وأمّا مقصده السياسيّ الذي وجّه إليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي إليه مدّة حياته وكلّ ما أصابه في سبيله، فهو إنّها الدولة الإسلاميّة من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتّى تلحق الأمّة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القويّة فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفيّ مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقيّة وتقليص ظلّها عن رؤوس الطوائف الإسلاميّة، وله في عداوة الإنجليز شؤون يطول بيانها»[1].

إلى أن قال:

«ما خاصم أحدًا إلّا خصمه، ولا جادله عالم إلّا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيّون بذلك بعدما أقرّ له الشرقيّون، وبالجملة فإنّي لو قلت بأنّ ما أتاه الله من قوّة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدّر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم»[2].

وقال إنّه سافر إلى الهند وعمره ١٨ سنة أي سنة ١٢٧٢ هـ. أقام بها سنة وبضعة أشهر، وأتى بعد ذلك الأقطار الحجازيّة لأداء فريضة الحجّ، وطالت مدّة سفره إليها نحو سنة، وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر، حتّى وافى مكّة المكرّمة سنة ١٢٧٣ هـ فوقف على كثير من عادات الأمم التي مرّ بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثمّ رجع بعد أداء فريضة الحجّ إلى بلاده وفي سنة ١٢٨٥ هـ. سافر إلى الحجّ عن طريق الهند. فلمّا وصل إلى التخوم الهنديّة تلقّته حكومة الهند بحفاوة وإجلال إلّا أنّها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع

١ | المصدر نفسه.
٢ | **أعيان الشيعة**، مصدر سابق، الصفحة ٢١٠.





عليه إلّا على عين من رجالها فلم يقم أكثر من شهر ثمّ سيّرته من سواحل الهند في أحد مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر وأقام فيها نحو أربعين يومًا تردّد فيها على الجامع الأزهر إلى أن يقول وسارع بالسفر إلى الأستانة وبعد أيّام من وصوله إليها أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله.

ثمّ يشير إلى مؤامرة دُبّرت ضدّه في الأستانة إلى أن يقول:

«وآل إلى صدور أمر الصدارة إليه بالجلاء عن الأستانة بضعة أشهر. ففارق الأستانة مظلومًا في حقّه. وحمله بعض من كان معه على التحوّل إلى مصر، فجاء إلى مصر في أوّل محرّم سنة ١٢٨٨ هـ - إلى أن يقول - واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درًّا - إلى أن يقول - ولم يزل شأنه في ارتفاع والقلوب عليه في اجتماع إلى أن تولّى خديوية مصر حضرة خديويها المغفور له توفيق باشا، وكان السيّد من المؤيّدين لمقاصده الناشرين لمحامده إلّا أنّ بعض المفسدين ومنهم مستر فيفيان قنصل إنكلترا الجنرال سعى فيه حتّى غيّر قلب الخديويّ عليه، فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصريّ هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهنديّة سنة ١٢٩٦ هـ وأقام بحيدر آباد الدكن، وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريّين، ولمّا كانت الفتنة الأخيرة بمصر دُعي من حيدر آباد إلى كلكتا وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتّى انقضى أمر مصر وفتأت الحرب الإنجليزيّة. ثمّ أبيح له الذهاب إلى أيّ بلدٍ آخر، فاختار الذهاب إلى أوروبا، وأوّل مدينة صعد إليها مدينة لونجرة أقام بها أيامًا قلائل ثمّ انتقل منها إلى باريس وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثنائها.

ولمّا كلّفته جمعيّة العروة الوثقى أن يُنشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة، كانت تحت لواء الخلافة الإسلاميّة أيّدها الله سألني أن أقوم على تحريرها، فأجبت، ونُشر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، وقد أخذت من قلوب الشرقيّين عمومًا والمسلمين خصوصًا





ما لم يأخذ قبلها وعظ واعظ، ولا تنبيه منبّه، ثمّ قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها حيث قفلت أبواب الهند عنها، واشتدّت الحكومة الإنجليزيّة في إعنات من تصل إليهم فيه، ثمّ بقي بعد ذلك مقيمًا في أوروبا، أشهرًا في باريس، وأخرى في لاندرة إلى أوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ هـ، وفيه رجع إلى البلاد الإيرانيّة»[١].

وفي إيران، لم يهدأ السيّد جمال الدين فأخذ يبثّ الوعي بين الناس، ويبيّن لهم حقيقة ما حلّ بهم من الضعف والذلّ والتخلّف نتيجة لفساد الحكّام وخنوع الشعب وهيمنة الجهل عليهم وضعف العزيمة فيهم. قال الميرزا صادق خان البروجوردي أحد أصحابه حسب نقل السيّد صالح الشهرستاني في مجلّة العرفان وكان في جميع مجالسه وأحاديثه ينتقد السلطان ناصر الدين ووزيره يومئذٍ ميرزا علي أصغر خان الملقّب أمين السلطان، ويدعو إلى الإصلاح ومقاومة الاستبداد وانتهى به الأمر إلى أن أخرجه وزير الشاه ناصرِ الدين من إيران قهرًا إلى العراق، وقد وصف السيّد جمال الحالة التي أُخرج بها إلى العراق في رسالته المعروفة إلى الإمام الشيرازي يقول فيها:

«ثمّ حملتني زبانيّته الأوغاد وأنا مريض على برزون مسلسلًا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريريّة، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين، وصحبني جمع من الشرطة إلى بغداد، ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني إلى البصرة علمًا منه أنّه ولو تركني إلى نفسي لأتيتك أيّها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الأمّة وشرحت لك ما حاق ببلاد الإسلام من شرّ هذا. ودعوتك أيّها الحجّة إلى عون الدين وحملتك على إغاثة المسلمين وكان على يقين أنّي لو اجتمعت بك لا يمكنه أن يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد وإهلاك العباد»[٢].

ثمّ إنّ السيّد اتّجه من البصرة إلى أوروبا مرّة أخرى واستقرّ في لندن وأصدر فيها جريدة «ضياء الخافقين» وقد أدّى ذلك إلى أن

١ | **أعيان الشيعة**، مصدر سابق، الصفحة ٢١٢.
٢ | المصدر نفسه، الصفحة ٣١٤.






تضيّق عليه الحكومة الإنجليزيّة فاستدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة فتوجّه إليها سنة ١٣١٠هـ وبقي فيها يواصل نشاطه في سبيل إقامة الدولة الواحدة ووحدة الأمّة الإسلاميّة وإيقاظ المسلمين، إلى أن قتل ناصر الدين شاه سنة ١٣١٣ هـ، على يد آقا رضا خان الكرماني وكان من تلامذة السيّد جمال الدين المقرّبين لديه، فطلبت الحكومة الإيرانيّة من البلاط العثمانيّ تسليمها السيّد جمال الدين بعد أن كشفت للسلطة العثمانيّة حقيقة كونه شيعيًّا إيرانيًّا، وأدّى ذلك بحسب ما يراه المحقّق مرتضى مدرّسي جوهاردي إلى أن تحتلّ الحكومة الإيرانيّة لقتله، وبعثت من أجل ذلك رجلًا يدعى «ناصر الملك» فاستطاع وبالتنسيق مع السفارة الإيرانيّة في إستانبول دسّ السمّ إلى السيّد جمال الدين، فقتل شهيدًا بالسمّ سنة ١٣١٤ هـ[1].

الفصل الثاني: مشروعه التغييري

أقام السيّد جمال الدين مشروعه التغييريّ على أسس ثلاثة:

الأول: بثّ الوعي بين المسلمين حكامًا وعلماء وشعوبًا وتنبيههم على الفساد والتخلّف الفظيع الذي يحكم واقعهم الثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ ودعوتهم إلى الجدّ في سبيل إصلاح ذلك الواقع الفاسد وتجديد الحالة الدينيّة في واقع المسلمين بما ينسجم مع أهداف الرسالة المحمّديّة ومبادئها وقيمها.

كتب السيّد جمال الدين في مقالة نشرت بجريدة «مصر» في ١٤ فبراير ١٨٧٩ ثمّ أعاد رشيد رضا نشرها في «المنار» في عدد ٤، ١٤ نوفمبر ١٩٠٠م:

«إنّ طول مكث الشرقيّين تحت نير استبداد المستبدّين الذين كان اختلاف أخوائهم الناشئ عن تضاد طبائعهم، وسوء تربيتهم، مع عدم وجود رادع يردعهم ومانع يمنعهم، وقوى خارجيّة تصادمهم

١ | سيّد جمال الدين وانديشه او، الصفحة ٤٩٠.





في سيرهم، سببًا يوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم، بل اقتضت التصرف في غرائزهم وسجاياهم، والتغيّر في فطرتهم الإنسانيّة، حتى كادوا أن لا يميّزوا بين الحسن والقبيح والضارّ والنافع، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم، وما انطوت عليه من القوى المقدّسة والقدرة الكاملة والسلطة المطلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعّال الذي تخضع لديه البسائط والمركّبات، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات. وأنّ امتداد زمن توغّلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق بل تستدعي التنزّل إلى المرتبة الحيوانيّة، ومداومتهم من أحقاد متتالية على معارضة العلوم الحقيقيّة التي تكشف عن حقيقة الإنسان، وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه وتبيّن له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعيّة، وتمكّنه من دفعها والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول، وسخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدًا»[1].

هذا نموذج من كلامه الذي كان يبثّ الوعي بين المسلمين وينبّههم إلى واقعهم الفاسد الذي يعيشونه، ويدعوهم فيه إلى تغييره وإصلاحه.

الثاني: إلغاء الهيمنة الاستعماريّة على بلاد المسلمين، وإحياء روح الاستقلال والاعتماد على النفس بين الشعوب المسلمة، بل والشعوب الشرقيّة كلّها، وعلاج حالة التبعيّة والشعور بالصَّغار الذي كان قد خيّم على المسلمين حكّامًا وشعوبًا، وقادةً وجماهير، ممّا جعلهم يقفون أمام هيمنة الأجانب موقف المستسلم الذليل، وأمام ثقافتهم، وأفكارهم، موقف المقلّد التابع من غير دليل.

كتب السيّد جمال الدين في مقال نشرته جريدة «البصير» التي كانت تنشر في باريس في العدد ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٣م:

١ | جمال الدين الأفغاني، **سلسلة الأعمال المجهولة** (نشر رياض الريّس للكتب والنشر)، الصفحة ٦٢.





«إنّ للأمم صعودًا ونزولًا، وإنّ في ارتفاعها وانخفاضها تتناوبها السعادة والشقاوة، وتعتورها العزة والمسكنة، وما يطمح بصرها إلى ذرى المجد إلا وترى نفسها في حضيض المذلّة - إلى أن يقول - وليست أسباب هبوط الأمم وعروجها، طلوع نجم، وأفول كوكب كما ذهب إليه البعض. وليس جذر قوّتها ومدّ سلطتها مسبّبين عن الأسباب الطبيعيّة، لأنّنا نرى أممًا كثيرة شبّت بعدما شابت وبُعثت بعدما ماتت وصارت عظامًا نخرة، والأسباب الطبيعيّة لا تحيد سننها ولا تقف عن سيرها، ولا تعتريها التبديلات ولا يعيدها عن مسالكها اختلاف الحركات. ها هي الأمّة الإيطاليّة أمامك فانظر إليها يظهر لك صدق مقالي، ولا تغضّ النظر عن إسبانيا متدبّرًا فيما كانت عليه معتبرًا فيما آلت إليه، وإنّ الأمم ما صعدت إلا بنفسها، وما هبطت إلا من نفسها - إلى أن يقول - إنّ الأمّة العربيّة في صدر الإسلام ما كان عددها يزيد عن المليونين، وأنّها مع الفقر المدقع وقتئذٍ، وخلوّها عن العلوم والصنائعِ قد أرغمت الأكاسرة ودمغت القياصرة، والآن بلغ عددها ٣٠ مليونًا وهي قاصرة عن إدارة نفسها وعاجزة عن صيانة بلادها. إنّ العثمانيّين مع قلّة العدد، قد أرعبوا الدول الغربيّة وأذلّوا الجبابرة... وتراهم من نصف قرن مع سعة بلادهم وكثرة رجالهم، يسترحمون ملوك الإفرنج ويحتمون بهم، ويزعمون أن لا حياة على البسيطة إلا بهم. - إلى أن يقول -: لا يمكن أن تنال أمّة من الأمم سعادة ما إلا بالتئام آحادها التئام أعضاء الجسد بعضها ببعض، ولا يحصل لها علوّ الكلمة وبسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهيةً إلى نقطة سعادة الكلّ غير خارجة عن محيط الجنسيّة وأن يلاحظ كلّ منها منفعة الكلّ أولًا وبالذات، وينظر إلى منفعة نفسه ثانيًا وبالعرض، حتى يكون خير الكلّ كينبوع تتشعب منه جداول خيرات الآحاد»[1].

الثالث: إحياء الأمّة الإسلاميّة عن طريق رجوعها إلى تطبيق الإسلام تطبيقًا كاملًا وتوحيدها في ظلّ حكومة إسلاميّة واحدة.

١ | **سلسلة الأعمال المجهولة**، مصدر سابق، الصفحة: ١٠٧ وما بعدها.





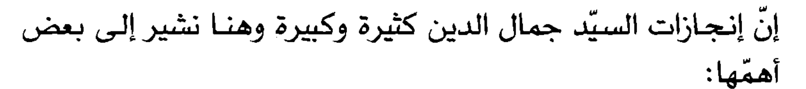
كتب السيد جمال الدين في مقالة نشرتها «العروة الوثقى» تحت عنوان «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك» كتب يقول فيها:

«للمسلمين شدّة في دينهم وقوة في إيمانهم وثباتًا على يقينهم يباهون بها من عداهم من الملل - إلى أن يقول -: ومع هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الأيام بعضهم في غفلة عمّا يلمّ بالبعض الآخر ولا يألمون لما يألم له البعض، فأهل (بلوجستان) كانوا يرون حركات الإنجليز في (أفغانستان) على مواقع أنظارهم ولا يجيش لهم جأش، ولم تكن لهم هزّة على إخوانهم، والأفغانيّون كانوا يشهدون تدخّل الإنجليز ولا يضجرون ولا يتململون - إلى أن يقول - تمسّك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها ممّا يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملًا منه: إنّ الأفكار العقليّة والعقائد الدينيّة وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيّات النفسيّة وإن كانت هي الباعثة على الأعمال وعن حكمها تصدر، بتقدير العزيز العليم، لكنّ الأعمال تثبتها وتقوّيها، وتطبعها في الأنفس عليها حتى يصير ما يعبّر عنه بالملكة والخلق، وتترتّب عليها آثارها التي تلائمها - إلى أن يقول بعد تدبّر هذه الأصول البيّنة والنظر فيها بعين الحكمة يظهر لك السبب في سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدّتهم في دينهم... فإنّه لم يبقَ من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينيّة مجرّدة عمّا يتبعها من الأعمال - إلى أن يقول -: وكان من الواجب على العلماء قيامًا بحق الوراثة التي شرّفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينيّة ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كلّ مسجد وكلّ مدرسة مهبطًا لروح حياة الوحدة، ويصير كلّ واحدة منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتزّ أحد أطرافها اضطرب لهزّته الطرف الآخر»[1].

١ | **العروة الوثقى** (الطبعة الأولى، مركز الثقافة الإسلاميّة في أوروبا، روما - إيطاليا)، الصفحة ٣٠.



الفصل الثالث: أهمّ إنجازاته



إنّ إنجازات السيّد جمال الدين كثيرة وكبيرة وهنا نشير إلى بعض أهمّها:

أ- بثّ الوعي واليقظة بين الأمّة الإسلاميّة ونشر الفكر الإسلاميّ والنهضويّ بين كوادرها لا سيّما علمائها ورجالها السياسيّين ولا سيّما السياسيّين، وقد تركت جهود السيد جمال الدين في هذا المجال آثارًا كبيرة وأدّت إلى كثير من التغييرات الاجتماعيّة في البلدان الإسلاميّة. فمن التغييرات والأحداث التي تأثّرت بجهود السيد جمال الدين، الأحداث التي شهدتها بلاد الهند والتي وقف فيها المسلمون موقفًا موحّدًا ضد الاستعمار الإنجليزي وقد استطاع فيها المسلمون حفّ هويتهم الإسلاميّة والتي انتهت بالتالي إلى تأسيس دولة باكستان الإسلاميّة. ومن التغييرات الكبرى التي تأثرت بجهوده وبفكره الثورة الدستوريّة في إيران سنة ١٣٢٤ هـ، فإنّ الثورة الدستوريّة وإن تأثرت زمنيًّا عن عصر حياة السيد جمال الدين ولكنّ المتأمّل في الأحداث التي سبقت الثورة الدستوريّة ومهّدت لها يجد بوضوح أنّ الخيوط الأولى من النهضة الفكريّة والسياسيّة التي انتهت بالثورة الدستوريّة تحركت على يد السيد جمال الدين وهو أول من زرع بذور النهضة التغييريّة في إيران في نهايات عهد القاجار.

وأمّا ساحة مصر والشمال الأفريقي، فهي أكثر البلدان تأثّرًا بفكر السيد الأفغاني أو الأسد آبادي، فحركة الوعي الإسلاميّ في هذه المنطقة، وما تلاها من النشاط الإسلاميّ الحركيّ والفكريّ، مدينة بكليتها وأسسها الأولى لهذا الرجل العظيم، يقول الدكتور محمد البهي:

«مات جمال الدين في سنة ١٨٩٧م بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربي استمر قرابة ثلاثين عامًا، ولكن ما إن توفي رحمه الله حتى انتشر كفاحه واتجاهه في التفكير في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، وبخاصة في تلك الأنحاء التي تسلّط فيها الأجنبي وعبث بمقدّسات





المسلمين وبكراماتهم واقتصاديّاتهم ومواردهم في الثروة الطبيعيّة.

مات جمال الدين، وظهر أثره في مصر، محمد عبده ومدرسته السلفيّة. وفي الجزائر، في جمعية علماء الجزائر (لمؤسسها المرحوم عبد الحميد بن باديس المتوفي سنة ١٩٤٠ م). وفي أندونيسيا في حركة تجديد «المنار». وفي الهند، جماعة أهل الحديث، وفي ندوة العلماء (لمؤسسها محمّد شبل النعماني المتوفى سنة ١٩٤١ م)، وفي أزهر الهند في مدرسة دار العلوم في (ديوبند) التي نقلت بعد تقسيم ١٩٤٨ م إلى (أكوري) ببيشاور في الباكستان»[١].

ب - إعداد جيل من العلماء والكوادر الحركيّين الحاملين للفكر الإسلاميّ النهضويّ، والسائرين على خطى السيد جمال الدين، في مختلف أقطار العالم الإسلاميّ، وقد استمرّت مدرسة جمال الدين ضمن هذه المجاميع من المفكرين وحملة الوعي الإسلاميّ حتى ظهرت آثارها في كثير من بلاد الإسلام سواء على الصعيد الفكريّ أو على الصعيد السياسيّ.

يقول الدكتور البهي:

«خلق جمال الدين جيلًا من القادة، خلّفه بعد وفاته على أساس من المعرفة والتبصير الهادئ الرزين، أو على أساس من فهم صحيح للإسلام وتعاليمه وفي توجيه العالم المجرّب. فلم يكن جمال الدين قائد شعب أو شعوب ضدّ اعتداء أجنبيّ قوي منظّم فحسب، بل كان مع ذلك رائد فكرة، ورائد فهم سليم للإسلام. ولولا دفع جمال الدين الأفغاني وتبصيره العلميّ الإسلاميّ لما رأينا من بعده شخصيّة كشخصيّة الشيخ محمد عبده، تتميّز كلّ التميّز عن أقرائنها [أقرانها] يومئذٍ في فهم الإسلام، وفي تقدير قيمه، وفي فهم الحياة وظروفها، ولمّا وجد هذا النظام الإسلاميّ الشامل للحياة الإسلاميّة في ظل الإسلام وتعاليمه الذي وضعه تلميذه المخلص محمد عبده»[٢].

١ | **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، الصفحة ١١٢.

٢ | المصدر نفسه، الصفحة ١٠٨.





الفصل الرابع: نظرة تقييميّة إلى إنجازات السيّد جمال الدين

نلخّص النظرة التقييميّة إلى إنجازات السيّد جمال الدين ضمن النقاط التالية:

وفّق السيّد توفيقًا كبيرًا في نشر الوعي بين الأمّة الإسلاميّة واستنهاض رجالها وعلمائها ومفكّريها، وخلق تيارًا فاعلًا من الوعي الحركيّ والفكر النهضويّ بين الطبقة المفكّرة والمثقّفة في المجتمع الإسلاميّ في شتّى المناطق وبين مختلف شعوبه.

لقد تميّز السيّد من بين غيره من قادة الصحوة الإسلاميّة وبُناتها باقتحام الحواجز الطائفيّة القوميّة وتذليل العقبات التي تحول بين تفاعل أجزاء الأمّة وقطاعاتها بعضها مع بعض، حتى استطاع وهو رجل شيعيّ إيرانيّ أن يعمل مع السنّة الأتراك حكامًا وعلماء كما عمل بين الإيرانيّين، وأن يعمل بين الأزهريّين وكبار المقدرة الفريدة في شخصيته هي التي مكّنته من التأثير بين رجال علمائهم كما عمل بين علماء الشيعة في العراق وإيران، وهذه الأمّة على اختلاف طوائفها وقوميّاتها من شرق العالم الإسلاميّ إلى غربه.

بالرغم من الموقع المتميّز الذي احتلّه جمال الدين بين علماء السنّة ممّا جعلهم يعبّرون عنه بفيلسوف الشرق والحكيم الأكبر، وما إلى ذلك من العبارات الدالّة على موقعه الفكريّ والعلميّ المتميّز في أوساط أهل السنّة، لم يحتلّ السيد بين أوساط الشيعة موقعًا علميًّا وفكريًّا بارزًا، ولم تنظر إليه الأوساط العلميّة الشيعيّة كمفكّر كبير جاء بجديد في عالم الفكر والتحقيق العلمي. وإنّما برزت شخصيّة السيّد جمال الدين في الأوساط الشيعيّة كشخصية مصلحة ذات أفكار سياسيّة جديدة تدعو إلى تحرير البلاد الإسلاميّة ورقيّها، ونبذ الفرقة والخلاف، والوقوف أمام الاستعمار الغاشم والهيمنة الأجنبيّة في صف واحد وبقوة واحدة. ولهذا، فالسيد جمال الدين كان يعوزه في بلاد أهل السنّة العمق الاجتماعي لأنّه كان بالرغم - من كلّ عبقريّته - رجلًا دخل إليها من خارجها، وكان يعوزه في بلاد الشيعة العمق الفكريّ والدينيّ الذي يمكّنه أن يحتل الموقع القياديّ الذي





يؤهّله للقيام بما كان يطمح إليه من التغيير الشامل لذلك المجتمع التقليديّ، وتحويله إلى مجتمع إسلاميّ جديد، عامر بالعدالة، نابض بالحياة.

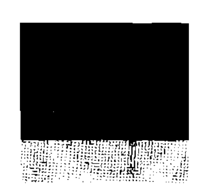
ومن الأسباب التي تركت بعض السلبيّات على نشاط السيد جمال الدين وتحرّكه النهضويّ، تنقّله وعدم استقراره في منطقة معيّنة، فلم يتمكّن في حركته التوعويّة من النفوذ إلى عمق المجتمعات التي عمل فيها ولا استطاع أن ينال بعمله التغييريّ شبكة العلاقات التحتيّة في بنائها الاجتماعيّ.

لكلّ ما ذكرناه ولغيرها من الأسباب التي يطول شرحها ضعفت العلاقة بين جمال الدين والعامّة من الجماهير المسلمة في المناطق التي كان يتردّد إليها. وضعف العلاقة هذا أدّى إلى هزال ثقله الاجتماعيّ، ومن ثمّ فقدانه الحماية الكافية والسند الذي يستطيع أن يعتمد عليه في المشروع التغييريّ، وكان هذا من أهمّ الأسباب التي جرّأت الحكّام والمفسدين عليه في جميع المناطق التي حلّ فيها وبدأ فيها نشاطه الفكريّ والسياسيّ. فما أن بدأ الخطوة الأولى من مشروعه التغييريّ حتى أحسّ المفسدون منه خطرًا على مصالحهم ومواقعهم فطردوه بكلّ سهولة، وعاملوه بكلّ قسوة وإذلال، وأفشلوا بذلك ما كان يرومه من إشادة الوعي بين الناس ونشر أفكاره ومقاصده.





المرحلة الثانية: مرحلة البناء الفكريّ للأمّة



كان لا بدّ للصحوة الإسلاميّة أن تملك على الصعيد النظري فكرًا إسلاميًّا يقدّم الحلول المناسبة لمشاكل الإنسان المعاصر، ويعرض الإسلام كنظام شامل يواكب الزمن وينسجم مع متطلبات العصر الحاضر. ولقد أسهم كثير من المفكّرين الإسلاميّين في هذا المجال، ولكنّ المنتوج النظري الذي قدّمه الإمام الشهيد الصدر كان الأقوى والأشمل والأعمق سواء من حيث المنهج أم من جهة المضمون، حتّى إنّنا الآن وبعد مضيّ ما يقرب من نصف قرن على ما قدّمه السيّد الشهيد لم نجد من المفكّرين المسلمين من قدّم نتاجًا فكريًّا لحلّ مشاكل الإنسان المعاصر سواء على الصعيد الفلسفيّ أم الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ ما يداني الذي قدّمته مدرسة أستاذنا الإمام الشهيد الصدر قدّس سرّه.

ولقد استطاع فكر السيّد الشهيد أن يغطي مساحة واسعة من الفراغ الفكريّ والنظريّ الذي كانت تواجهه الصحوة الإسلاميّة، ومن هنا يحقّ أن نعتبر الأستاذ الإمام الشهيد الصدر رائد الصحوة الإسلاميّة الأوحد على الصعيد الفكريّ والنظريّ.

ولا يسعنا هنا الحديث عن الآثار الكبرى التي خلّفتها مدرسة السيّد الشهيد على الحالة الفكريّة للمجتمع الإسلاميّ على العموم، وفي الدائرة الشيعيّة على الخصوص، غير أنّ من يواكب تطوّر الحالة الفكريّة بين المسلمين في نهايات القرن العشرين يجد لمسات الفكر الإسلاميّ الجديد الذي أنتجه الإمام الصدر واضحة على عموم الحالة الفكريّة في المجتمع الإسلاميّ، لا سيّما على الصعيد الفلسفيّ والاقتصاديّ والفقهيّ بمعناه الشامل لعلم الأصول.





وفيما يلي عرض مجمل لهذه الشخصيّة الرائدة وإنجازاتها في مرحلة البناء الفكريّ للأمّة الإسلاميّة:

الفصل الأول: عرض سريع لحياة الإمام الشهيد الصدر

ولد رحمه الله في مدينة الكاظمية في العراق بتاريخ ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ[١]، وانتقل إلى النجف الأشرف بعد أن أكمل دراسته الإبتدائيّة في مدرسة الكاظميّة، ويبدو أنّه كان يمارس الدراسة بجهد شخصيّ خارج المنهج الدراسيّ المتداول، حتّى أنّه بلغ مراحل عالية من العلم ولمّا يكمل مراحل الدراسة الإبتدائيّة، وحينما انتقل إلى النجف واصل دراساته الإسلاميّة التي بدأها في الكاظميّة على أعلى المستويات، وقد بدأ بالحضور في ما يسمّى بالبحث الخارج[٢] فور وصوله إلى النجف الأشرف[٣] وهو في أوائل الثانية عشرة من عمره الشريف، وقد ترك التقليد منذ بلوغه سنّ التكليف ممّا يدلّ على أنّه بلغ مرتبة الاجتهاد أو كاد وهو في هذه السنّ المبكرة[٤]، ولقد صرّح باجتهاده بعض فقهاء النجف الكبار وهو في سنّ السابعة عشرة من عمره الشريف[٥].

ثمّ إنّه واصل الدراسات الإسلاميّة في جامعة النجف الأشرف لدى كبار أساتذتها حتى أكمل الدراسات العليا وهو مجتهد ضليع يعترف له أساتذته بالتفوّق والنبوغ سنة ١٣٧٨ هـ، ثمّ بدأ يمارس التدريس والتأليف، وكان قد مارسها قبل ذلك بعض الشيء، فقد بدأ بالتأليف في سنّ مبكرة فكان أول نتاجه التأليفي بعض آرائه الأصوليّة التي دوّنها في ما أسماه بـ «غاية الفكر في علم أصول الفقه» واقترن ذلك بنتاج علميّ آخر درس فيه أحداث التاريخ الإسلاميّ بعد وفاة رسول

١ | الشيخ محمد رضا النعماني، **الشهيد الصدر، سنوات المحنة وأيام الحصار** (قم: المطبعة العلمية، الطبعة ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، الصفحة ٤٢.

٢ | البحث الخارج هو المرحلة العليا من الدراسات الإسلاميّة في حوزات العلم الشيعيّة يؤهل فيها الطالب لمرحلة الاجتهاد.

٣ | **حياة الشهيد الصدر، مقدمة الحلقة الأولى من دروس في علم الأصول** (طبعة مجمع الفكر الإسلامي)، الصفحة ٤٧.

٤ | مقدمة **مباحث الأصول**، جزء من القسم الثاني/ الصفحة ٥٢، الطبعة سنة ١٤٠٧ هـ.

٥ | المصدر نفسه، الصفحة ٤٣.







الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، صدر بعنوان **فدك في التاريخ**. ثمّ بدأ يخطط لإصدار مجموعة دراسات تتناول عرض الفكر الإسلاميّ عقيدة ونظامًا بأسلوب علميّ حديث يتناسق مع متطلبات العصر الحاضر، ويبرز فيه الإسلام فكرًا ومنهجًا ونظامًا بالصورة التي تكشف للعالم الجديد عن استحكام الأطروحة التي قدّمتها السماء لإنسان الأرض، وفشل المدارس الوضعيّة والأفكار والنظريّات الماديّة التي تقطع علاقة الإنسان بوحي السماء، وتشدّه بتراب الأرض، وتسدّ الطريق في وجهه نحو السعادة الكبرى والكمال المنشود.

ومن هذا المنطلق بدأ أولى خطواته بكتاب **فلسفتنا** الذي عرض فيه الفكر الفلسفيّ الإسلاميّ بطريقة لم يسبق لها مثيل، وناقش فيه التيارات الفلسفيّة الأخرى، وأثبت قوّة منطق الإسلام واستحكام فلسفته، وفشل المدارس الفلسفيّة الماديّة ووهنها وعجزها المنطقيّ عن منازلة الفكر الإسلاميّ ومباراته في ميدان البحث الفلسفيّ وعلى مستوى البرهان والدليل.

ثمّ أردف ذلك بكتابه الآخر **اقتصادنا** تناول فيه المذاهب الاقتصاديّة الحديثة بالنقد والدرس، وقارن فيها بين ما قدّمته الحضارة الماديّة المعاصرة بوجهيها الرأسماليّ والاشتراكيّ من الحلول المذهبيّة لمأساة الحياة الاقتصاديّة الحاضرة، وما قدّمته رسالة السماء متمثّلة في المذهب الاقتصاديّ الإسلاميّ، وقد كشف ضمن دراسة موضوعيّة عن مواضع الخلل ومواطن الضعف الكبرى في الاقتصاد الماديّ بكِلا وجهَيْه الرأسماليّ والاشتراكيّ، ومدى تفوّق الاقتصاد المذهبيّ في الإسلام على منافسيه في أسسه ومبادئه وفي أحكامه وتفاصيله، وقد وصف رحمه الله مجهوده الفكري في **اقتصادنا** فقال بتواضع:

إنّما هو محاولة بدائيّة - مهما أوتي من النجاح وعناصر الابتكار - للغوص إلى أعماق الفكرة الاقتصاديّة في الإسلام، وصبّها في قالب فكريّ ليقوم على أساسها صرح شامخ للاقتصاد الإسلاميّ، ثريّ





بفلسفته وأفكاره الأساسيّة واضح في طابعه ومعالمه واتّجاهاته العامّة، محدّد لعلاقته وموقفه من سائر المذاهب الاقتصاديّة الكبرى، مرتبط بالتركيب العضويّ الكامل للإسلام[1].

ثمّ إنّه رحمه الله كان قد أزمع أن تكون الحلقة الثانية في نتاجه الفكريّ المتسلسل عن الإسلام هوٍ كتاب **مجتمعنا** ولكنّه استجابة لحاجة الساحة الملحّة آنذاك ونزولًا عند رغبة القرّاء - كما صرّح بذلك قدّس سرّه - رجّح تقديم **اقتصادنا** فكانت الحلقة الثانية هذه السلسلة، ثمّ حالت الأقدار دون إصدار الحلقة الثالثة وهي **مجتمعنا** وبقيت الساحة الفكريّة تتوقّع صدور هذا الأثر بانتظار وتلهّف بالِغَيْن ثمّ لم يقدّر له رحمه الله انتاج هذا الأثر إلى أن استشهد قدّس سرّه.

قال قدّس سرّه في مقدّمة الطبعة الأولى لكتاب **اقتصادنا**:

كنّا يا قرّائي الأعزّاء على موعد منذ أن افترقنا في كتاب **فلسفتنا**، فقد حدّثتكم أنّ **فلسفتنا** هي الحلقة الأولى من دراساتنا الإسلاميّة، بوصفها دراسة تعالج الصرح الإسلاميّ الشامخ، الصرح العقائديّ للتوحيد، وتتلوها بعد ذلك الدراسات التي تتعلق بالبنيات الفوقيّة في ذلك الصرح الإسلاميّ، لتكتمل لنا في نهاية المطاف صورةٍ ذهنيّة عن الإسلام، بوصفه عقيدة حيّة في الأعماق ونظامًا كاملًا للحياة، ومنهجًا خاصًا في التربية والتفكير.

قلنا هذا في مقدّمة **فلسفتنا**، وكنّا نقدّر أن يكون **مجتمعنا** هو الدراسة الثانية في بحوثنا، نتناول فيها أفكار الإسلام عن الإنسان وحياته الاجتماعيّة وطريقته في تحليل المركّب الاجتماعيّ وتفسيره، لننتهي من ذلك إلى المرحلة الثالثة، إلى النظم الإسلاميّة للحياة التي تتصل بأفكار الإسلام الاجتماعيّة، وترتكز على صرحه العقائدي الثابت، ولكن شاءت رغبة القرّاء الملحّة أن نؤجّل **مجتمعنا**، ونبدأ بإصدار **اقتصادنا** عجلًا منهم في الاطّلاع على دراسة مفصّلة

١ | **اقتصادنا**، مقدمة الطبعة الأولى، (الطبعة ١٦)، الصفحة ٣٥.





للاقتصاد الإسلاميّ، في فلسفته وخطوطه وتعاليمه[1].

ولكن توقف هذه السلسلة عند كتاب **اقتصادنا** لم يكن يعني توقف الانتاج الفكريّ للإمام الشهيد الصدر فقد صدر عنه فيما بين الفترة التي فرغ فيها عن **اقتصادنا** حتى فترة استشهاده مجموعة فكريّة ضخمة ذات أهميّة كبرى كالبنك اللاربوي في الإسلام ودروس في علم الأصول والفتاوى الواضحة والأسس المنطقيّة للاستقراء، ويعدّ هذا الأخير من أكبر نتاجات الفكر البشريّ في القرن العشرين وأهمّها على صعيد الفكر الفلسفيّ والمنطقيّ، فقد وضع قدّس سرّه في هذا الكتاب أسس ما أسماه بنظريّة المنطق الذاتيّ، وهي النظريّة التي تكشف عن الأسس المنطقيّة لليقين الاستقرائيّ، فهي من جانب تحلل اليقين الاستقرائيّ وتكشف عن الفوارق المنطقيّة بينه وبين اليقين البرهانيّ ومن جانب آخر تفلسف اليقين الاستقرائيّ وتكشف عن الأسس التي يقوم عليها هذا اليقين، والقواعد المنطقيّة التي يبتني عليها.

وبهذا الكتاب انتهت حكومة المنطق الأرسطيّ على الفكر الفلسفيّ الإسلاميّ، وبدأت مرحلة جديدة في الفلسفة الإسلاميّة لا يشكّل المنطق الأرسطيّ إلا جزءًا يسيرًا من أصول التفكير فيه.

وحينما بدأت بشائر انتصار الثورة الإسلاميّة تلوح في سماء إيران بدأ قدّس سرّه بتأليف مجموعة فكريّة تتناول قضايا المجتمع المعاصر وتقدّم لها الحلول الإسلاميّة، وكان من أهمّها أطروحة دستور الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران والتي أفاد منها فقهاء مجلس الخبراء الإيرانيّ الأوّل والذي انتخب من قبل الشعب لتدوين الدستور الإسلاميّ.

ثمّ إنّ من أهمّ جوانب الإبداع في مدرسة السيّد الشهيد ما أحدثه من التغيير الشامل في الدراسات الإسلاميّة الكلاسيكيّة، فإنّ التجديد الذي حصل على يد السيّد الشهيد في الفكر الأصوليّ

١ | المصدر نفسه، الصفحتان ٢٧ و٢٨.





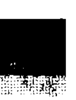
والفقهيّ على وجه الخصوص سواء على صعيد المنهج أو المضمون، تجديد قلّ نظيره في تاريخ هذا الفكر على العموم، فلقد أقام قدّس سرّه أسس مدرسة أصوليّة وفقهيّة جديدة تتميّز بالترابط المنهجيّ واستحكام المضمون، وعمق التفكير والنقد الفاعل البنّاء.

وقد أحدث الفكر الإسلاميّ التي جاءت به عبقريّة الإمام الشهيد سواء على مستوى الثقافة الإسلاميّة الجديدة أم على مستوى الدراسات الكلاسيكيّة تيارًا فكريًّا قويًّا هيمن بالتدريج على الساحة الفكريّة في مختلف البلدان الإسلاميّة، وخاصة منها العراق وإيران، وكان له أبلغ الأثر في تحصين العقل الثقافيّ المسلم أمام الغزو الفكريّ والأجنبيّ، وخلق الأرضيّة المناسبة للتحرك السياسيّ المنظّم الهادف نحو مجتمع إسلاميّ يقوم على أساس النظام الإسلاميّ والقرآن الكريم.

وقد تطورت الحركة الإسلاميّة بفعل ما أحدثته مدرسة السيد الشهيد من النقلة الفكريّة من مرحلتها الانفعاليّة التي تحاول فيها بجهد بالغ وقف الزحف الفكريّ الأجنبيّ، ومعالجة السقم الفكريّ والثقافيّ الذي شاع في أوساط المثقفين المسلمين نتيجة تسلل الثقافة الأجنبيّة إلى أعماق معاهدنا العلميّة ومؤسساتنا الثقافيّة، تطورت إلى مرحلة جديدة برز فيها الفكر الإسلاميّ بتنظير الإمام الشهيد الصدر قويًّا فاعلًا عملاقًا يطارد الفكر الغازي في معاقله ومعاهده، بعد أن قطع السبيل عليه في النفوذ والهيمنة على معاهد الفكر والثقافة في بلاد الإسلام، وعقول أبنائه المثقّفين.

ولقد كان للسيد الشهيد دورًا قياديًّا فريدًا في تثوير الحالة الإسلاميّة في العراق وتربية أجيالها الحركيّين، وتوجيههم فكريًّا وسياسيًّا فقد كان له الدور الأول في تربية الكوادر الثقافيّة الإسلاميّة وعناصر الحركة الإسلاميّة، وتأسيس التنظيم الإسلاميّ الحركيّ، وإنمائه وتوجيهه، وكان له الدور الأول في تحريك الساحة الحوزويّة وتفعيلها وتنشيطها فكريًّا وسياسيًّا، وكانت معاقل التحرّك الفكريّ والسياسيّ الجديد في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف خاصة وفي العراق





عامّة كجماعة العلماء، والرابطة الأدبيّة، ومدرسة العلوم الإسلاميّة، ومنتدى النشر ومدارس الإمام الجواد، والجهاز المرجعيّ للإمام الراحل السيّد الحكيم ومشاريعه الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، والحركة الإسلاميّة بمختلف قياداتها ومجتمعها، تتغذّى من أفكاره وآرائه، وتهتدي بتوجيهاته وإرشاداته.

وقد باشر التصدّي لقيادة الجماهير المسلمة في العراق بعد رحيل الإمام المجاهد السيّد الصابر الحكيم، فبدأ بتنظيم الجهاز المرجعيّ وتأسيس شبكة العلاقات الدينيّة التي تربط القاعدة الشعبيّة بالمرجعيّة الدينيّة القائدة من خلال علماء المدن، والكودار الثقافيّة والمؤهّلة، وكان قدّس سرّه قد أعدّ قبل تصدّيه للمرجعيّة أطروحة كاملة للمرجعيّة الرشيدة الصالحة[١] وكان ذلك أول عمل تنظيريّ يشهده تاريخ المرجعيّة يحاول تنظيم الجهاد المرجعيّ وترشيده وتطويره من خلال أطروحة مدروسة، هادفة متكاملة.

ولقد اقترن انتشار مرجعيّته في الأوساط الشيعيّة بانتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، فكان من أول من انبرى بدعمها وتأييدها بكلّ قوة، وكان يعتبر نفسه بالرغم من مكانته القياديّة المرموقة ملزمًا من الناحية الشرعيّة بطاعة الإمام الخميني ونصرته وحماية الثورة الإسلاميّة ودعمها بكلّ قوة، وبهذا أوصى تلامذته وتابعيه، وقد أكّد ذلك بصراحة في رسالته المعروفة إلى تلامذته في إيران أيام انتصار الثورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخميني، وقد جاء فيها:

«إنّ الواجب على كلّ واحد منكم، وعلى كلّ فرد قدّر له حظه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلاميّة الرائدة أن يبذل كلّ طاقاته، وكلّ ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلا يتوقف في البذل والبناء يشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوة الإسلام، وعملية البناء الجديد بحاجة إلى طاقات كلّ فرد مهما كانت ضئيلة. ويجب أن

١ | راجع لملاحظة الأطروحة المذكورة، مقدمة الجزء الأول من القسم الثاني من كتاب **مباحث الأصول** لآية الله السيّد كاظم الحائري كبير تلامذة الإمام الصدر قدّس سرّه، الصفحة٩٢.





يكون واضحًا أيضًا أنّ مرجعيّة السيد الخميني - التي جسدت آمال الإسلام في إيران اليوم - لا بدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم، وليست المرجعيّة الصالحة شخص وإنّما هي هدف وطريق، وكلّ مرجعيّة حققت ذلك الهدف والطريق، فهي المرجعيّة الصالحة التي يجب العمل لها بكلّ إخلاص، والميدان المرجعيّ أو الساحة المرجعيّة في إيران يجب الابتعاد بها عن أيّ شيء من شأنه أن يضعف أو لا يساهم في الحفاظ على المرجعيّة الرشيدة القائدة»[1].

وقد صعّد قدّس سرّه حركته الثوريّة الإسلاميّة في العراق بعد انتصار الثورة الإسلاميّة فبدأ يدعو الشعب العراقيّ في نداءاته التي أطلقها عبر الكاسيت، أو محاضراته ورسائله التي كان يبعثها إلى تلامذته وممثّليه في مختلف مناطق العراق بل وخارجه، إلى ثورة إسلاميّة شاملة في وجه البعثيين المتسلطين على الحكم في العراق، وكان يركز في نداءاته ورسائله على ضرورة الثورة في وجه الطغاة، وضرورة العمل من أجل تطبيق الإسلام في بلاد الإسلام كافّة، وفي كلّ ربوع الأرض، وضرورة التضحية والفداء من أجل نصرة الدين الإسلاميّ الحنيف والدفاع عن المظلومين والمستضعفين، وقد اشتهرت عنه نداءاته الثلاثة الأخيرة إلى الشعب العراقي نعرض فيما يلي بعض مقاطعها، فمن ندائه الأول بتاريخ ٢٠ رجب ١٣٩٩هـ :

«وإنّي أؤكّد لك - يا شعب آبائي وأجدادي - إنّي معك وفي أعماقك، ولن أتخلى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله، وأود أن أؤكد للمسؤولين أن هذا الحكم الذي فرض بقوة الحديد والنار على الشعب العراقيّ حرمانه من أبسط حقوقه وحريّاته من ممارسة شعائره الدينيّة لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يعالج دائمًا بالقوّة والمنع.

إنّ القوّة لو كانت علاجًا حاسمًا دائمًا لبقي الفراعنة والجبابرة.

١ | المصدر نفسه، الصفحة ١٤٦.





أسقَطوا الآذان من الإذاعة فصبرنا، أسقَطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا، وطوّقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا، وحاصروا المساجد وملؤوها أمنًا وعيونًا فصبرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا، وقالوا: إنّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا، ولكن إلى متى؟! إلى متى تستمر فترة الانتقال؟! إذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقيّ طريقه، فأيّة فترة تنتظرون لذلك؟ وإذا كانت فترة عشرة سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم أيّها المسؤولون إقناع الناس بالإنتماء إلى حزبكم إلّا عن طريق الإكراه، فماذا تأملون؟ [إلى أن يقول]: وأطالب باسم كرامة الإنسان بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسّفيّة وإيقاف الاعتقال الكيفيّ الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء. وأخيرًا، أطالب باسمكم جميعًا وباسم القيم التي تمثّلونها بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقيّة حقّه في تسيير شؤون البلاد، وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثّل الأمّة تمثيلًا صادقًا.

وإنّي أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفني غاليًا وقد تكلّفني حياتي، ولكنّ هذه الطلبات ليست طلب فرد لتموت بموته، وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر أمّة، وإرادة أمّة، ولا يمكن أن تموت أمّة تعيش في أعماقها روح محمد وعليّ والصفوة من آل محمد وأصحابه [إلى آخر ما يقول في ندائه الأول للشعب العراقيّ][1]».

وجاء في القسم الثاني من ندائه إلى الشعب العراقيّ بتاريخ ١٠ شعبان ١٣٩٩هـ:

يا شعبي العراقيّ العزيز، يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت لدينها، لكرامتها ولحريّتها وعزّتها ولكلّ ما آمنت به من قيم ومثل، أيّها الشعب العظيم: إنّك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد

١ | مقدمة الجزء الأول من القسم الثاني من كتاب **مباحث الأصول** لآية الله السيّد كاظم الحائري كبير تلامذة الإمام الصدر قدّس سرّه، الصفحة ٩٢.





السفّاكين والجزّارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير، بعد أن قيّدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب، وخيل للسفّاكين إنّهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزّة، والكرامة، وجرّدوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمّدها العظيم، لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبيّ إلى دمى وآلات يحركونها كيف يشاؤون ويزقّونها ولاء عفلق وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار بدلاً عن ولاء محمد وعليّ صلوات الله عليهما، ولكنّ الجماهير دائمًا هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة، وهكذا فوجىء الطغاة بأنّ الشعب لا يزال ينبض بالحياة وما تزال لديه القدرة على أن يقول كلمته، وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الآلاف من المؤمنين، والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن والاعتقال والتعذيب والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب.

إلى أن يقول :

«وأنا أعلن لكم يا أبنائي أنّي صمّمت على الشهادة ولعلّ هذا هو آخر ما تسمعونه منّي، وأن أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر، وما ألّذ الشهادة التي قال عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّها حسنة لا تضر معها سيئة، والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت. فعلى كل مسلم في العراق، وعلى كل عراقيّ في خارج العراق أن يعمل كلّ ما بوسعه ولو كلّفه ذلك حياته من أجل إدامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذّ شريف يقوم على أساس الإسلام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وقال في ندائه الأخير الذي لا يعرف تاريخه بالضبط:

١ | المصدر نفسه، الصفحة ١٥٠.





يا شعبي العراقيّ العزيز، أيها الشعب العظيم: إني أخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك، وحياتك الجهاديّة، بكلّ فئاتك، وطوائفك بعربك، وأكرادك بسنّتك وشيعتك، لأنّ المحنة لا تخص مذهبًا دون آخر، ولا قوميّة دون أخرى، وكما أنّ المحنة هي محنة كلّ الشعب العراقيّ فيجب أن يكون الموقف الجهاديّ، والردّ البطوليّ، والتلاحم النضاليّ هو واقع كل الشعب العراقيّ.

وإنّي منذ عرفت وجودي ومسؤوليّتي في هذه الأمّة، بذلت هذا الوجود من أجل الشيعيّ والسنّيّ على السواء ومن أجل العربيّ والكرديّ على السواء حيث دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعًا، وعن العقيدة التي تهمّهم جميعًا، ولم أعش بفكري وكياني إلاّ للإسلام طريق الخلاص وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السنّي، بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام، وبقدر ما تحملون هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلّط والاضطهاد. إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنة أنّ المسألة مسألة شيعة وسنة وليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك. وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر: إن المعركة ليست بين الشيعة والحكم السني.

إنّ الحكم السنّي الذي مثّله الخلفاء والذي كان يقوم على أساس الاسلام والعدل، حمل عليّ السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديًّا في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر، وكلنا نحارب تحت راية الاسلام، مهما كان لونها المذهبي، إنّ الحكم السنّي الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله، وخرج الآلاف من الشيعة وبذلوا دمهم رخيصًا من أجل الحفاظ على راية الإسلام ومن أجل حماية الحكم السنيّ الذي كان يقوم على أساس الإسلام. إنّ الحكم الواقع ليس حكمًا سنيًّا، وان كانت الفئة المتسلطة تنتسب تاريخيًا إلى التسنن.





إلى أن يقول:

ألا ترون يا أولادي وأخواني أنّهم أسقطوا الشعائر الدينيّة التي دافع عنها عليّ وعمر معًا؟! ألا ترون أنّهم ملأوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير، وكل وسائل المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معًا؟!.

إلى أن يقول:

«يا إخوتي وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامراء والكاظمية، من أبناء العمارة والكوت والسليمانية، من أبناء العراق في كل مكان، إنّي أعاهدكم بأنّي لكم جميعًا، ومن أجلكم جميعًا، وإنّكم جميعًا هدفي في الحاضر والمستقبل، فلتتوحد كلمتكم ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تحكمه عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعًا على اختلاف قوميّاتهم ومذاهبهم بأنّهم أخوة يساهمون جميعًا في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلاميّة العليا، المستمدة من رسالتنا الإسلاميّة، وفجر تاريخنا العظيم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

هذا ولقد أشيع في العراق أنّ الإمام الشهيد عزم على مغادرة العراق، وبدأت وفود الدعم والتأييد المطالبة من السيد الشهيد البقاء في العراق تتقاطر على بيته في النجف الأشرف، وكان ذلك بمنزلة تعبئة جماهيريّة لإعداد الشعب العراقي في مواجهة السلطة من جانب، واستعراضًا للنفوذ الشعبيّ للسيد الشهيد أمام عين السلطة من جانب آخر، إلى أن ارتأى السيد الشهيد وقف حركة الوفود استعدادًا للمراحل الأخرى من التحرك الثوري الذي كان السيد الشهيد قدّس سرّه يعدّ الأمّة له.

وقد أقدمت السلطات البعثية على اعتقال الإمام الشهيد الصدر في اليوم

١ | المصدر نفسه، الصفحة ١٥٣.





السابع عشر من رجب سنة ١٣٩٩ هـ، وقد أدّى اعتقاله إلى انتفاضة جماهيريّة كبرى في النجف الأشرف قادتها السيدة الشهيدة بنت الهدى أخت الإمام الصدر انتهت إلى الاشتباك المسلّح بين الجماهير وقوات الأمن، ورافق ذلك احتجاجات جماهيريّة أخرى في مدن العراق الكبرى كالبصرة وديالى والكاظمية وغيرها، ممّا اضطرّ السلطة إلى الإفراج المؤقّت عن الإمام السيّد الشهيد قدّس سرّه.

ثمّ إنّ السلطة البعثيّة عندما رأت أنّ هذا الالتفاف الجماهيريّ حول الإمام الشهيد الصدر يحول دون تمكّن السلطة من القضاء عليه دبّرت خطّة جديدة في مواجهة الإمام الشهيد، وهي أنّها أقدمت على تطويق دار السيّد الشهيد واحتجازه في داره وقطع صلة الجماهير المؤمنة وعلماء البلاد به قدّس سرّه، ولقد أفلحت السلطة في خطّتها حيث وفقت في منع اتصال الجماهير بالسيد الشهيد، إلى أن اعتقل للمرة الأخيرة بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ وتلا ذلك اعتقال أخته المظلومة بنت الهدى، وقد أقدمت السلطة البعثيّة الحاقدة، على قتل الإمام الشهيد فور اعتقاله في التاريخ المذكور، فمضى لربّه شهيدًا، صابرًا محتسبًا رضي الله عنه وأرضاه.

الفصل الثاني: مشروعه التغييريّ

شهد نجم الإمام الشهيد الصدر في سماء العالم الإسلاميّ ذروة التحدّي المضاد للوجود الإسلاميّ فكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، فمن جانب بدأت التيارات الفكريّة تكتسح مساحات واسعة من عقول المثقفين والجامعيّين، ومن جانب آخر أخذت التنظيمات السياسيّة الموالية للهيمنة الأجنبية على بلاد الإسلام تلتهم القوى الفاعلة من أبناء الإسلام وتخلق منهم جيوشًا من المتطوعين ذوي الطاقات والكفاءات العليا تسخرهم لخدمة الأجانب من أعداء الأمّة الإسلاميّة، حتى أضحى المخلصون من أبناء الإسلام يشعرون بالغربة بين أهليهم، ويستوحشون وهم في أوطانهم وفي بلدانهم التي ولدوا على تربتها ونشأوا في أحضانها. ومن هنا فقد تمثّل المشروع





التغييريّ للإمام الشهيد الصدر في ثلاثة خطوط متوازية:

الخط الأول: التغيير الفكريّ

لقد وجد الإمام الشهيد الصدر أنّ الساحة الفكريّة الإسلاميّة تشهد تحدّيًا للإسلام لم يسبق له مثيل، من جانب التيارات والمدارس الفكريّة الإلحاديّة والماديّة، وكان ذلك يستدعي جهدًا جديدًا في التصدي للهجوم الفكري المضاد وتغييرًا جوهريًّا شاملًا في الطرائق والأدوات والأساليب، ونوعًا جديدًا من المواجهة يقلب موازين الصراع لصالح الفكر الإسلاميّ عقيدة ونظامًا، ويخرج الحالة الفكريّة والروحيّة المهيمنة على ذهنية العالم الإسلاميّ من الشعور بالانهزامية والانهيار أمام هجوم الفكر الغربي، إلى حالة من التماسك والتصدّي، ثمّ الهجوم المضاد، والتأثير الفاعل الذي يهزم التيارات الفكريّة المناهضة، ويتبوّأ الفكر الإسلامي موقعه اللائق في عالم الحضارة والفكر، بل ويمكّنه من التربّع على عرش القيادة الفكريّة للمجتمع الإنسانيّ المعاصر. ومن هنا، فقد أقام مشروعه التغييريّ في المجال الفكري، على الأسس التالية:

١- تجديد الفكر الإسلاميّ تجديدًا معاصرًا يحافظ على أصالته النابعة من الكتاب الكريم والسنّة المطهّرة، ويعرضه بالصورة التي تنسجم مع متطلّبات الحياة الحاضرة، ويلبّي حاجات الإنسان المعاصر، ويقدّم له الحلول المناسبة لمشاكله التي يعاني منها.

٢- تجديد مناهج البحث والتدريس في الحوزات العلميّة، ومعاهد الدراسات الإسلاميّة وتطوير البحث العلميّ في الدراسات الدينيّة المدرسيّة بما يجعلها تتطابق مضمونًا وشكلًا مع تطلّعات الإنسان المعاصر فردًا ومجتمعًا، ومتطلباته.

٣- عرض الإسلام كنظام متكامل متناسق ينطلق من رؤية فلسفيّة مستحكمة إلى الكون والإنسان، مدعومة بالبرهان الفلسفيّ والدليل المنطقيّ، والتأكيد على استقلاليّة المدرسة





الفكريّة للإسلام، وتجنّب الطريقة الانفعاليّة في الخطاب الإسلاميّ، والتي دأب عليها الانهزاميّون والمنبهرون بالحضارة الغربيّة وثقافتها، والتي تسعى إلى تطوير أحكام الإسلام وتحويرها بما يجعلها منسجمة مع مبادئ الفكر الغربي، ومتأطّرة بإطار قيم الحضارة الغربيّة، وثقافتها.

٤- التصدّي للفكر المضاد تصدّيًا موضوعيًّا يكشف من خلال البحث والحوار المنطقيّ المستدل وهن الأسس التي يقوم عليها، وتناقضه الداخليّ وعجزه عن تقديم الحل الناجع لا دواء الإنسانيّة المعاصرة ومشاكلها.

٥- تربية جيل ناشط من الكوادر الفكريّة من العلماء الحوزويّين والمثقفين الجامعيين وتزويدهم بالثقافة الإسلاميّة المعمّقة، والفكر الإسلاميّ الجديد، وزجّهم في ساحات المجابهة الفكريّة مع تيارات الفكر الإلحادي والمادّيّ المضاد.

الخط الثاني: التغيير الاجتماعيّ

وجد الإمام الشهيد الصدر أنّ تغيير الحالة الاجتماعيّة التي تعيشها الأمّة لا يمكن إلّا من خلال جهاز قيادي تثق به الأمّة من جانب، ويتمتّع بالمؤهلات القياديّة التي تمكّنه من تغيير الوضع الاجتماعي إلى الحالة المطلوبة من جانب آخر، ويمتلك الآليات التي تمكّنه من ممارسة هذا التغيير من جانب ثالث، ولا يوجد في التركيب الاجتماعيّ للأمة جهاز مؤهل للتمتّع بهذه القابليات عدا جهاز المرجعيّة الدينيّة التي تعتبر القلب النابض للأمّة ومحور العمل الديني والتحرّك الاجتماعيّ في أوساطها، غير أنّ الحالة الفرديّة، والوضع البدائيّ المرتجل الذي كان يحكم جهاز المرجعيّة الدينيّة السائدة كان يحول دون أن تحتلّ موقعها القياديّ الفاعل في أوساط الأمّة، فكان لا بدّ من البدء في عمليات التغيير الاجتماعيّ بهذا الجهاز المحوريّ، وتحويله من جهاز فردي، إلى مؤسسة موضوعيّة تتمكن المرجعيّة الدينيّة من ممارسة دورها القياديّ والتغييريّ في أوساط الأمّة من خلالها وقد كتب قدّس سرّه في أطروحته



للمرجعيّة الدينيّة يقول:

«إنّ أهمّ ما يميّز المرجعيّة الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقيّة الّتي يجب أن تسير المرجعيّة في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام، وامتلاكها صورة واضحة محدّدة لهذه الأهداف، فهي مرجعيّة هادفة بوضوح ووعي، تتصرّف دائمًا على أساس تلك الأهداف بدلًا من أن تمارس تصرّفات عشوائيّة وبروح تجزيئيّة وبدافع من ضغط الحاجات الجزئيّة المتجدّدة. وعلى هذا الأساس كان المرجع الصالح قادرًا على عطاء جديد في خدمة الإسلام ، وإيجاد تغيير أفضل لصالح الإسلام في كلّ الأوضاع التي يمتدّ إليها تأثيره ونفوذه»[1].

لقد كان الإمام الشهيد الصدر يرى أنّ أهمّ ما يتوجب توفّره في المرجعيّة الصالحة وعيها لأهدافها أولًا وتبنّيها الجادّ لها وسعيها الحثيث إلى تحقيقها ثانيًا، وسلوكها الطريق والمراحل العمليّة التي تضمن تحقيق تلك الأهداف ثالثًا. وقد كتب يحدّد أهداف المرجعيّة الصالحة فسجّلها في خمس نقاط:

١- نشر أحكام الإسلام على أوسع مدى ممكن بين المسلمين، والعمل لتربية كل فرد منهم تربية دينيّة تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصيّ.

٢- إيجاد تيّار فكريّ واسع في الأمّة يشتمل على المفاهيم الإسلاميّة الواعية من قبيل المفهوم الأساسيّ الذي يؤكد بأنّ الإسلام نظام كامل شامل لشتّى جوانب الحياة، واتخاذ ما يمكن من أساليب لتركيز تلك المفاهيم.

٣- إشباع الحاجات الفكريّة الإسلاميّة للعمل الإسلاميّ، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلاميّة الكافية في مختلف المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والمقارنات الفكريّة بين الإسلام وبقية المذاهب الاجتماعيّة، وتوسيع نطاق الفقه الإسلاميّ على نحو يجعله قادرًا على مدّ كل جوانب الحياة بالتشريع، وتصعيد

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٢.



الحوزة ككلّ إلى مستوى هذه المهامّ الكبيرة.

٤- القيمومة على العمل الإسلاميّ والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ من مفاهيم وتأييد ما هو حق منها وإسناده وتصحيح ما هو خطأ.

٥- إعطاء مراكز العالمية من المرجع إلى أدنى مراتب العلماء، الصفة القياديّة للأمّة بتبنّي مصالحها والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها واحتضان العاملين في سبيل الإسلام[1] .

وقد كان يرى أنّ وعي المرجعيّة لأهدافها وإن كان الشرط الأوّل في طريق تحقق المرجعيّة الصالحة، لكن ذلك لا يكفي لوصول المرجعيّة الصالحة لأهدافها التي يتطلب التنفيذ العمليّ لهذه الأهداف أن تقوم المرجعيّة الصالحة بخطوتين عمليّتين:

الأولى: الإعداد العمليّ المسبق، وقد وضّح ذلك قائلًا:

«أمّا فكرة العمل المسبق على قيام المرجعيّة الصالحة فهي تعني أنّ بداية نشوء مرجعيّة صالحة تحمل الأهداف الآنفة الذكر تتطلب وجود قاعدة آمنت بشكل وبآخر بهذه الأهداف داخل الحوزة وفي الأمّة، وإعدادها فكريًّا وروحيًّا للمساهمة في خدمة الإسلام وبناء المرجعيّة الصالحة»[2].

وقال:

«بهذا كان لزامًا على من يفكّر بقيادة تطوير المرجعيّة إلى مرجعيّة صالحة كان يمارس هذا العمل المسبق بدرجة ما، وعدم ممارسته هو الذي جعل جملة من العلماء الصالحين - بالرغم من صلاحهم - يشعرون عند تسليم المرجعيّة بالعجز الكامل عن التغيير لأنّهم لم يمارسوا هذا العمل المسبق، ولم يحددوا مسبقًا الأهداف الرشيدة

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٣.
٢ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٣.





للمرجعيّة، والقاعدة التي تؤمن بهذه الأهداف»[١].

الثانية: تطوير أسلوب المرجعيّة: فلا بدّ من تطوير الجهاز المرجعيّ وتحويل آليّاته العمليّة إلى آليّات فاعلة قادرة على إنجاز وظائف الجهاز المرجعيّ وتحقيق أهدافه وذلك لا يتمّ إلا بتطوير الجهاز المرجعيّ في دائرتين:

أولًا: الدائرة الخاصة، وذلك بتحسين الوضع الداخليّ لجهاز المرجعيّة وتطويره في تركيبه الداخليّ، عن طريق إيجاد جهاز عمليّ وتخطيطيّ وتنفيذيّ للمرجعيّة يقوم على أساس الكفاءة والتخصص وتقسيم العمل واستيعاب كلّ مجالات العمل المرجعيّ الرشيد في ضوء الأهداف المخصصة، وسيحلّ هذا الجهاز محلّ الحاشية في الوضع التقليديّ للجهاز المرجعيّ. ولا بدّ أن يشتمل هذا الجهاز على اللجان التالية:

١- لجنة الإشراف على الوضع الحوزويّ وتطويره بما ينسجم مع الأهداف الواعية للمرجعيّة الصالحة، وتسييره وإدارته.

٢- لجنة الانتاج العلميّ ووظائفها إيجاد دوائر علميّة مختصّة لممارسة البحوث ومتابعة سيرها والإشراف على الانتاج الحوزويّ وتشجيعه وتوظيفه في سبيل الأهداف المطلوبة.

٣- لجنة شؤون العلماء المختصّة بإدارة شؤون علماء المناطق.

٤- لجنة الاتصالات لتفعيل صلات المرجعيّة بالمناطق غير المتّصلة بالجهاز المرجعيّ، والشخصيّات الفكريّة والعلماء في سائر مناطق العالم الإسلاميّ.

٥- لجنة رعاية العمل الإسلاميّ ودعمه في مختلف مناطق العالم الإسلاميّ.

٦- اللجنة المالية التي تشرف على تنظيم الأوضاع الماليّة وإدارتها وتوسيع مواردها.

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٣.



ثانيًا: الدائرة العامّة، وذلك بإيجاد امتداد أفقيّ حقيقيّ للمرجعيّة يجعل منها محورًا قويًّا تنصب فيه كلّ الطاقات والقوى المنتسبة إلى المرجعيّة في العالم وذلك عن طريق تشكيل مجلس يضمّ علماء الشيعة والقوى الممثّلة للمرجع دينيًّا وسوف يضم هذا المجلس اللجان التي يتكوّن منها الجهاز العمليّ للمرجعيّة، ويقوم المرجع بممارسة قيادته الدينيّة مستعينًا بهذا المجلس مستشيرًا لها ويقوم المجلس بالإضافة إلى دوره الاستشاري بمسؤوليّة التضامن مع المرجعيّة في تنفيذ أوامرها وتحقيق أهدافها[١]. وبهذا تتمكّن المرجعيّة الصالحة من القيام بدورها المطلوب، ومن خلالها يتحقق التغيير المطلوب في الأمّة نحو أهداف الإسلام المنشودة.

الخط الثالث: التغيير السياسيّ

كان الإمام الشهيد الصدر يرى أنّ عملية التغيير الشامل في الأمّة لا تتمّ إلا بتطبيق شريعة الله كاملة في شؤون الحياة الإنسانيّة وجوانبها كافة، وهو يتطلب إقامة دولة إسلاميّة تتولّى تطبيق الإسلام في المجتمع الإنسانيّ في كلّ مناحي الحياة، ولا بدّ لأجل ذلك من إعداد الأمّة في المجال السياسيّ فكريًّا وعمليًّا. أمّا إعدادها الفكري فإنّما يتمّ من خلال بثّ الوعي السياسيّ بين أبنائها، وقد أكّد على ضرورة هذا الوعي الإسلاميّ السياسيّ وحدّد مضمونه قائلًا:

«وقد حمل الإسلام المشعل المتفجّر من نور، بعد أن بلغ البشر درجة خاصة من الوعي، فبشّر بالقاعدة المعنويّة والخلقيّة على أوسع نطاق وأبعد مدى، ورفع على أساسها راية إنسانيّة وأقام دولة فكريّة، أخذت بزمام العالم ربع قرن، واستهدفت توحيد البشر كلّه، وجمعه على قاعدة فكريّة واحدة ترسم أسلوب الحياة ونظامها. فالدولة الإسلاميّة لها وظيفتان: إحداهما تربية الإنسان على القاعدة الفكريّة، وطبعه في اتّجاهه وأحاسيسه بطابعها، والأخرى مراقبته من خارج وإرجاعه إلى القاعدة إذا انحرف عنها عمليًّا. ولذلك

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٦.





فليس الوعي السياسي للإسلام وعيًا للناحية الشكليّة من الحياة الاجتماعيّة للحياة فحسب، بل هو وعي سياسي عميق مردّه إلى نظرة كليّة كاملة نحو الحياة والكون والاجتماع والسياسة والاقتصاد والأخلاق فهذه النظرة الشاملة هو الوعي الإسلامي الكامل، وكلّ وعي سياسي آخر فهو إمّا أن يكون وعيًا سياسيًّا سطحيًّا لا ينظر إلى العالم من زاوية معيّنة، ولا يقيم مفاهيمه على نقطة ارتكاز خاصة. أو يكون وعيًا سياسيًّا يدرس العالم من زاوية المادة البحتة، التي تمون البشريّة بالصراع والشقاء في مختلف أشكاله وأنواعه»[1].

ومن أهمّ مفردات الوعي السياسيّ الإسلاميّ الإيمان بضرورة الدولة الإسلاميّة فإنّها الطريق الوحيد إلى تطبيق الإسلام على شؤون الحياة كافّة، وقد أكّد على هذه الحقيقة قائلًا:

«إنّ الدولة الإسلاميّة تارة تدرس بما هي ضرورة شرعيّة لأنّها إقامة لحكم الله على الأرض، وتجسيد لدور الإنسان في خلافة الله وأخرى تدرس على ضوء هذه الحقيقة ولكن من ناحية معطياتها الحضاريّة العظيمة وقدراتها الهائلة التي تتميز بها عن أيّ تجربة اجتماعيّة أخرى. [إلى أن قال]: إنّ الدولة الإسلاميّة ليست ضرورة شرعيّة فحسب بل هي إضافة إلى ذلك ضرورة حضاريّة، لأنّها المنهج الوحيد الذي يمكنه تفجير طاقات الإنسان في العالم الإسلامي والارتفاع به إلى مركزه الطبيعي على صعيد الحضارات الإنسانيّة وإنقاذه ممّا يعانيه من ألوان التشتت والتبعيّة والضياع»[2].

وأمّا إعدادها العملي فإنّه ينبغي أن يتمّ ضمن ما لا يقلّ عن أربعة مشاريع:

المشروع الأوّل: إعادة بناء الجهاز المرجعيّ (جهاز المرجعيّة الدينيّة) بما يجعله قادرًا على التصدّي الأمّة فكريًّا وسياسيًّا[3].

المشروع الثاني: تربية قاعدة شعبيّة مؤمنة واسعة تؤمن بالإسلام

١ | مقدمة **فلسفتنا** (الطبعة الثانية عشرة) الصفحتان ٥١ و ٥٢.
٢ | **منابع القدرة الإسلاميّة**، الصفحة ٥.
٣ | مقدّمة **مباحث الأصول** للسيّد الحائري، أطروحة المرجعيّة الصالحة، الصفحة ٩٣.





إيمانًا حقيقيًّا وتفهمه فهمًا واعيًا مرتكزًا على مبدأ الشموليّة في الإسلام، وأنّه نظام كامل شامل لشتّى جوانب الحياة وأنّه يتكفّل بسعادة الإنسان في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى[١]، ولا بدّ من التركيز في تربية هذه القاعدة المؤمنة على إعدادها للتضحية والصمود في سبيل أهداف القيادة الإسلاميّة إلى أن تتمكّن من تحقيق أهدافها.

المشروع الثالث: إيجاد كوادر واعية عاملة في صفوف الأمّة تتولّى تربية الأمّة وتوجيهها نحو الأهداف السياسيّة المطلوبة[٢].

المشروع الرابع: إيجاد تنظيم إسلاميّ حركيّ يعمل تحت إشراف القيادة المرجعيّة ويتبنّى أهدافها ويسعى إلى تغيير الوضع السياسي الفاسد وتحقيق أهداف المرجعيّة على المستوى السياسيّ.

وفي هذا الصدد، قام رحمه الله بتأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة في شهر ربيع الأوّل سنة ١٣٧٧ هـ وخطّط لعمله ضمن مراحل ثلاث:

مرحلة تكوين الحزب وبنائه والتغيير الفكريّ للأمّة.

مرحلة العمل السياسيّ التي يتمّ بضمنها توعية الأمّة وتعريفها بالأطروحة الإسلاميّة التي يتبنّاها الحزب، وبمواقفه السياسيّة، وتربيتها على تبنّي مواقف الحزب وحمايته.

مرحلة استلام الحكم

وقد أضيفت إلى هذه المراحل مرحلة رابعة وهي: مرحلة رعاية مصالح الإسلام والأمّة الإسلاميّة بعد استلام الحكم.

وقد كان يرى أن ظروف الاستبداد السياسيّ الغاشم التي تحكم بعض البلاد الإسلاميّة وخاصة منها العراق، يتطلّب دمج المرحلتين الأولى والثانية بعضهما بالآخر، والعمل على كلا المستويين ضمن مرحلة واحدة[٣].

١ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٢.
٢ | المصدر نفسه، الصفحة ٩٣.
٣ | المصدر نفسه، الصفحتان ٩٠ و٩١.

على الرغم من أنّ العبقريّة والإبداع في عالم الفكر يتطلبان الانهماك الفكريّ، والابتعاد عمّا من شأنه زعزعة الاستقرار الذهنيّ والهدوء الروحيّ، لما بين الإنتاج الفكريّ المبدع والتحرك الثوريّ الميدانيّ من التناقض الغالب، غير أنّ القدرة النادرة التي تمتّعت بها شخصيّة أستاذنا الإمام الشهيد الصدر قدّس سرّه استطاعت أن تحلّ التناقض بين الأمرين، فلم يكن الإبداع الفكريّ الغزير، والتجديد النظريّ الشامل الذي أنتجته عبقريّة الإمام الشهيد، والذي جعله يحتلّ دورًا فريدًا على صعيد الريادة الفكريّة للصحوة الإسلاميّة المعاصرة، لم يكن ذلك ليمنعه من قيادة التحرك الثوريّ الجماهيريّ في ميدان التطبيق، ولئن كانت الساحة التي قدّر له أن يمارس منها دوره السياسيّ الرائد محدودة بأرض العراق غير أنّ دوره الرياديّ سواءً على الصعيد الفكريّ والنظريّ أم على أرض الواقع والتطبيق لم يكن محدودًا بحدود بلد خاص أو منطقة معيّنة بل اتّسعت مساحته لكلّ بلاد الإسلام بل جاوزتها إلى حيث حواضر التواجد الإسلاميّ من سائر بقاع الأرض.

وفيما يلي نلخص أهمّ إنجازات الإمام الشهيد الصدر رحمه الله على الصعيد الفكريّ أولًا، ثمّ على الصعيد العمليّ والتطبيقيّ ثانيًا. أمّا إنجازاته على الصعيد الفكريّ فيمكن تلخيصها في نقاط:

النقطة الأولى: إبداعه لأساليب البحث المنهجيّ في الدراسات الإسلاميّة: إنّ من أجلى سمات فكر الإمام الشهيد الصدر منهجيّته المنطقيّة النادرة التي قلّ أن نجد لها مثيلًا لدى رجالات الفكر والبحث العلميّ، فقد كان قدّس سرّه ذا تفكير منهجيّ منظّم لا يتناول فكرة إلا ويصوغها في قالب منطقيّ متناسق، وكثيرًا ما تجده يتناول الفكرة التي يريد نقدها فيضفي عليها من الصورة البرهانيّة والبيان المنهجيّ المنتظم حتى يخرجها بأفضل ممّا كانت على لسان صاحبها بكثير، ثمّ يقوم بمناقشتها ونقدها. ويمكن تلخيص أهم نقاط الابداع المنهجيّ في تفكير السيّد الشهيد فيما يلي:





الرؤية النظاميّة المتكاملة إلى تراث الوحي، التي تتبنّى عرض الإسلام نظامًا متكاملًا سواء في أسسه العقديّة أم بنائه التشريعيّ.

١- كشف المنطق الذاتيّ وهو ما قام به في كتابه **الأسس المنطقيّة للاستقراء** واعتماده في البحث الدينيّ زائدًا على منطق القياس البرهانيّ.

٢- وضوح التعبير مع جمال الصياغة، وسلاسة البيان، ودقّة الأداء، والتناسب الأدبيّ والمنطقيّ بين المفردات.

٣- التحليل المنطقيّ للفكرة إلى أجزائها وجزئيّاتها وكشف الترابط المنطقيّ بينها.

٤- إفراز المواضيع المندمجة بعضها عن بعض، وإعطاء كل موضوع نصيبه المنطقيّ من البحث.

٥- استقصاء احتمالات البحث، واعتبار المفروضات الممكنة وعدم إهمالها على صعيد الدرس والبحث العلميّ.

٦- ترتيب نقاط البحث ومواضيعه ترتيبًا يضع كلّ موضوع منها في تسلسله المنطقي المناسب.

النقطة الثانية: درس الفكر الآخر ومنازلته المنطقيّة على صعيد البحث العلميّ: على الرغم من أنّ الأبحاث المدرسيّة في معاهد العلم الإسلاميّة وحوزاتها الدراسيّة عرفت الحوار العلميّ مع الفكر الآخر منذ فجر نشاطها العلميّ في القرن الأول الهجري، وما فتئ رجالات العلم والفكر حتّى يومنا هذا يستطلعون مدارس الفكر الأخرى، ويتناولون الإنتاج العلميّ الذي يردّهم من الخارج بالدرس والنقد غير أنّ المحاولة التي قام بها الأستاذ الإمام الشهيد الصدر في دراسة المنتوج الفكريّ للمدارس الأخرى والتي برزت بصورة خاصة في كتابَيه: **اقتصادنا** و**فلسفتنا** كانت فريدة من نوعها لم تعهدها مدارس العلوم الإسلاميّة بهذا العمق والشمول، وبهذه الطريقة والأسلوب، ويمكننا تلخيص ما تميّزت به مدرسة الإمام الشهيد على هذا الصعيد في ما يلي:



عمق التأمّل والدقة اللا محدودة في درس الفكر الآخر وعرضه.

سعة البحث وشموله الذي عمّ به كلّ ما جاءت به المدارس الأخرى في دائرة الحوار من فكر نابض بالحياة، قائم على ساحة البحث النظريّ أو على أرض التطبيق الميدانيّ والعمليّ.

الأسلوب المنطقيّ الموضوعيّ المتين في دراسة الفكر الآخر، الذي يبتعد بالبحث عن كلّ ما يخلّ بفضاء التأمّل المنطقيّ من أساليب التهريج والسخرية وطرائق النقد اللاذع أو ما شاكل ذلك.

توثيق البحث العلميّ والاعتماد الغالب على المصادر المعتمدة الأولى في دراسة الفكر الآخر.

التفوّق المنطقيّ الناتج من القدرة العلميّة الفائقة التي تمكّن بها من منازلة الفكر الآخر منازلة لم تترك له مهربًا سوى الاقرار والتسليم.

النقطة الثالثة: معالجة مشاكل الإنسانيّة المعاصرة وقضاياها الحاضرة: إنّ من أهمّ ما تميّزت به إنجازات الإمام الشهيد الصدر الفكريّة، جدّتها وتركيزها على قضايا الإنسان الحاضر ومشاكله القائمة، وتقديمها الحلّ الإسلاميّ المعاصر لها. فـ **اقتصادنا**، **وفلسفتنا**، والبنك **اللاربوي**، **والإسلام يقود الحياة**، **والفتاوى الواضحة**، ودروس **في علم الأصول**، **والأسس المنطقيّة للاستقراء** وغيرها من إنجازاته الفكريّة الكبرى، كلّ واحد منها يتناول مشكلة معاصرة عامّة، أو خاصة لشريحة اجتماعيّة معيّنة، ذات أهميّة مصيريّة في مستقبل الأمّة الإسلاميّة وحاضرها.

النقطة الرابعة: التجديد العلمي في حقل الدراسات الإسلاميّة: لقد مارس الإمام الشهيد الصدر مهمّة التحقيق والتدريس في جامعة النجف الأشرف في حقل الدراسات العليا لمدّة تزيد على ربع قرن، وقد تصدّى للإنتاج الفكريّ في أهمّ حقول المعرفة الإسلاميّة، وخاصة منها الفلسفة والفقه والأصول، وكان من أهمّ ما تتميّز به ممارساته العلميّة في هذه الحقول، الإحاطة، والعمق، والتجديد، فقد استطاع أن يستوعب تراث الماضين، ويسبر غور أفكار المعاصرين،





فطوّر منها ما وجده جديرًا بالتطوير، ونقد منها ما وجده موضعًا للنقد، وأبدع فيها كثيرًا حتى اكتملت من آرائه وأفكاره مدرسة جديدة متميّزة بالنظرة الفاحصة والرأي البديع والنهج الجديد. فللسيّد الشهيد مدرسة متكاملة سواءً في حقل الفلسفة، أم في حقل الفقه، أو في حقل الأصول، وفي رأيي أنّ عمق الأفكار التي جاء بها السيّد الشهيد من جهة، وجدّتها على العقليّة الكلاسيكيّة في الدراسات الإسلاميّة من جهة أخرى، سبّبا شيئًا من البطء في نفوذ أفكاره في العقل الحوزويّ، وأخّرا هيمنتها على فضاء التفكير في أوساط الدراسات الإسلاميّة العليا، وقد بدأت أفكاره اليوم تحتلّ مساحات واسعة من أفكار الحوزويّين ولا بدّ أن يشهد المستقبل القريب تربّع المدرسة الصدريّة بأفكارها وإبداعاتها على عالم العقل والتفكير في حوزات العلوم الدينيّة ومعاهد الدراسات الإسلاميّة العليا.

ولا مجال لنا في هذه العجالة لأن نعرض ولو عرضًا خاطفًا معالم الفكر الجديد الذي أبدعته مدرسة السيّد الشهيد في شتّى حقول المعرفة الإسلاميّة. وقد قمنا بعرض صورة خاطفة من معالم مدرسته الأصوليّة الجديدة في الرسالة التي كتبناها تحت عنوان **معالم الفكر الأصولي الجديد** وهي دراسة موجزة لمعالم الفكر الأصوليّ للإمام الشهيد الصدر مقارنة بمدرسة الشيخ الأنصاري الأصوليّة، وكلّنا أمل أن ينبري أهل البحث والتحقيق للقيام بدراسات معمّقة لفكر السيّد الشهيد في شتّى حقول المعرفة الإسلاميّة مقارنًا بغيره من المدارس والأفكار، وعندئذٍ يظهر للباحثين عظمة الإنجاز الفكريّ للسيّد الشهيد ومدى سعته وعمقه وتأثيره في بناء الفكر الإسلاميّ الجديد.

وأمّا الإنجازات العلميّة للإمام الشهيد الصدر فيمكن تلخيص الأهمّ منها ضمن النقاط التالية:

١- تربية الكوادر العلميّة والخُلُقيّة الراقية في الحوزة العلميّة وخارجها، والتي كان لها أكبر الأثر في ترشيد الحركة الإسلاميّة، وتربية الأمّة وتوجيهها بمختلف قطاعاتها وشرائحها.



٢- تحصين فكر المثقّف المسلم أمام هجوم الفكر الإلحاديّ الغربيّ، بالرغم ممّا تجهّز به من عناصر الإغراء والنفوذ، كإمبراطوريّته الإعلاميّة الكبرى التي اكتسحت العالم شرقًا وغربًا، وقدراته العلميّة والتكنولوجيّة المسيطرة على العالم في عواصم القدرة السياسيّة والمعاهد العلميّة والثقافيّة، والإغراءات الماديّة الكبرى التي تدعمه في نفوذه وتحقيق أهدافه، والقدرة الاقتصاديّة الجبّارة التي تسنده.

٣- تأسيسه للتنظيم الحركي الإسلامي، والذي يعتبر نقلة نوعيّة في تاريخ النهضة الإسلاميّة في الوسط الشيعيّ.

٤- تأسيسه لجهاز المرجعيّة الرشيدة على ضوء من أطروحته في المرجعيّة الصالحة، غير أنّ مدّة تصدّيه للمرجعيّة لم تدم طويلًا، وهي مدّة لا تزيد عن عشر سنين، مع أنّ مرجعيّته لم تنتشر إلا في السنين الخمس الأخيرة قبل استشهاده قدّس سرّه ولم تنتشر انتشارًا واسعًا يؤهلها للقيام بما كانت تطمح إليه من أهداف، لوجود مرجعيّات منافسة عميقة الجذور واسعة الانتشار طويلة الأمد، كانت بالطبع تحول دون الانتشار الواسع لمرجعيّته العامّة رحمه الله، بالإضافة إلى ما كانت تمارسه السلطة البعثية الحاكمة في العراق من أساليب الضغط المختلفة ومحاولات التحجيم المتنوّعة لمرجعيّته والحؤول دون انتشارها في أوساط الأمّة من قبيل اعتقاله وكلائه في البلاد وزجّهم في السجون، وتشديد المراقبة على المتعاونين مع مرجعيّته والمرتبطين بها، وغير ذلك من المحاولات والأساليب.

٥- تفجير الثورة الإسلاميّة في العراق، وقيادتها، ثمّ تقديم الضمان اللازم لاستمراريّتها وذلك بالصمود البطوليّ العظيم في وجه الطغاة حتّى الشهادة.



الفصل الرابع:
نظرة تقييميّة إلى إنجازات الإمام الشهيد الصدر رحمه الله.

في نظرة تقييميّة موجزة لأهمّ إنجازات الإمام الشهيد الصدر يمكن تسجيل النقاط التالية:

النقطة الأولى: لا شكّ أنّ الإنجازات الفكريّة الكبرى التي قدّمها الإمام الشهيد كانت بالإضافة إلى عمقها وجدّتها وما أحدثته من التأثير البالغ في النهضة الفكريّة الإسلاميّة وفي الدراسات الإسلاميّة الكلاسيكيّة، من أهمّ العوامل التي حصّنت الذهنيّة المفكّرة في الوسط الثقافيّ الإسلاميّ أمام هجوم الثقافة الغربيّة الملحدة وأفكارها، وأمدّت الشخصيّة الإسلاميّة بالوقود الفكريّ اللازم الذي مكّنها من مواجهة عوامل التذويب الثقافيّ والروحيّ التي كانت تحيط بها من كلّ جانب. بيد أنّا لا نعلم بالضبط تفاصيل الظروف والعوامل التي اكتنفت حياة الإمام الشهيد الصدر بعد فراغه من كتابيه **اقتصادنا** و**فلسفتنا** ممّا حال دون إكمال سلسلة أبحاثه التي كان قد عزم على إنجازها، وخاصة **مجتمعنا** بالرغم من حاجة المجتمع الإسلاميّ الماسّة إلى مثل هذا الإنجاز. ومهما يكن من أمر فإنّ الأسف لا ينقضي من حرمان الأمّة الإسلاميّة من هذا الإنجاز.

وفي ظنّي أنّ التخلّف السياسيّ الذي كان يهيمن على بعض الأوساط الدينيّة الخاصّة من جانب، والظروف السياسيّة الخانقة التي كانت تهيمن على العراق من جانب آخر، كانا من أهمّ العوامل التي حالت دون هذا المشروع، فإنّ بحث المجتمع الإسلاميّ كان يتضمن بالضرورة نظريّة الحكومة الإسلاميّة وضرورتها ووجوب إقامتها، وولاية الفقيه العادل التي تشكّل دعامتها الكبرى، كلّ ذلك ولا ريب كان ممّا يجنّ له جنون الطغاة والمستكبرين، الحاقدين على الدين ويثير حفيظتهم كما يستفزّ المتظاهرين بالدّين من الحمقى والسذج، والغفلة والمتحجّرين، وهما دائمًا وجهان لعملة واحدة في مواجهة الأنبياء ومدرسة الوحي، وإن كانت الفئة الثانية هي الأكثر ضررًا والأقوى أثرًا، والأشدّ خطرًا.



النقطة الثانية: إنّ الخطوة الكبرى التي قام بها سيّدنا الإمام الشهيد قدّس سرّه في تأسيس العمل التنظيميّ، وإن كانت بلا شك نقلة نوعيّة عظيمة في تاريخ العمل الإسلاميّ داخل الوسط الشيعيّ، لم يسبق لها نظير، وكان له التأثير البالغ في ترشيد الحركة الإسلاميّة وتقويمها وتوجيهها، غير أنّ هناك بعض الإشارات اللافتة للنظر في هذا المجال تراود الذهن ممّا ينبغي هنا تسجيلها:

إنّ العمل التنظيميّ لا يمكن أن يقوم إلا على أساس الولاء التنظيميّ والطاعة الحركيّة للقيادة والوسائط القياديّة الأخرى حسب التشكيلة التنظيميّة، ولا بدّ أن يكون الولاء مطلقًا لا يشوبه ترديد أو نقاش. وخاصة عندما يواجه العمل التنظيميّ ظروفًا سياسيّة خانقة ونظامًا بوليسيًّا شرسًا كالذي تعاني منه معظم البلدان الإسلاميّة وخاصة منها العربيّة، سيّما العراق. إنّ كلّ عمل تنظيميّ يفتقد عنصر الطاعة المطلقة للقيادة فإنّه محكوم بالفشل، خاصة في ظروف المواجهة السياسيّة الحادّة مع الأنظمة الدكتاتوريّة البوليسيّة.

إنّ العمل التنظيميّ الموفّق في ظروف هيمنة الأنظمة البوليسيّة لا يمكن أن يستغني عن المتابعة الدقيقة والإشراف المتواصل من قبل القيادة لكلّ مراتب المنتمين، وتحكيم الحراسة المشدّدة على بناء التنظيم وقواعده الشعبيّة وكوادره، توقّيًا عن أيّ محاولة للاختراق أو النفوذ، من قبل الجهاز الحاكم المتسلّط، أو من قبل التنظيمات المنافسة الأخرى، أو من قبل أجهزة الاستخبارات العالميّة التي تهيمن على الوضع السياسي العالمي. ولا شكّ أن حماية التنظيم عن الاختراق والنفوذ يتطلب أحيانًا تصفية العناصر المدسوسة أو المشبوهة، تصفية تنظيميّة أو فرض عقوبات تنظيميّة معيّنة على العناصر غير المنضبطة والمتخلّفة عن قرارات القيادة وغير ذلك من أساليب الحراسة والضبط في البناء التنظيميّ.

لا بدّ لقيادة العمل التنظيميّ وخاصة في ظروف المواجهة مع الأنظمة الديكتاتوريّة الشرسة كالنظام الحاكم في العراق أن توفر لنفسها ظروفًا آمنة لتتمكن من خلالها من إدارة التنظيم وقيادته





قيادة حكيمة تتحرّى الدقّة والموضوعيّة في قراراتها ويتاح لها الارتباط السهل بقواعدها التنظيميّة وكوادرها العاملة وتوجيهها ورعايتها، ومتابعة سير العمل والمعالجة السريعة لمواطن الخلل العارض فيه.

يجب على قيادة العمل التنظيميّ توفير الوقت الكافي لإدارة العمل التنظيميّ والتفرّغ لمهامه.

إنّ العمل التنظيميّ - أيًّا كان إسلاميًّا أو غيره - لا بدّ أن يتوفّر على هذه العناصر الأربعة ليستطيع أداء دوره المطلوب وتحقيق أهدافه المرجوّة، وإلا فقد تنقلب نتائج العمل التنظيميّ على القيادة وأهدافها، وتلعب فيه الاختراقات والعوامل الدخيلة من جانب، وسوء تصرّف المنتمين من جانب آخر دورًا تخريبيًّا هدّامًا قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج غير محمودة، بل وقد تستغل من قبل السلطات الحاكمة أو أجهزة الاستخبارات الدوليّة، لكشف الكوادر النشيطة وتوريطها في ممارسات خاصة لفتح السبيل على الإجهاز عليها وإبادتها، بل والقضاء على كلّ ظواهر العمل الإسلامي تحت عناوين مكافحة الشغب أو الإرهاب أو ما شاكل ذلك من دون أن تستطيع قيادة العمل التنظيمي أن تتحسّب لكلّ ذلك وتخطط لمواجهته بطريقة حكيمة.

ولا ريب أنّ أكثر من شرط من الشروط المذكورة أعلاه لم يكن متوفرًا في العمل التنظيميّ الذي قام بتنفيذه أستاذنا الإمام الشهيد الصدر قدّس سرّه، ويبدو أنّه رحمه الله إنّما أقدم على ذلك بالرغم ممّا ذكرناه على أساس مبدأ ما لا يدرك كلّه لا يترك بعضه، واستجابة لمتطلبات الظروف الزمنيّة التي كانت تحتّم على الساحة الإسلاميّة في العراق وجود عمل تنظيميّ يتصدّى لتربية الكوادر وإعدادها من جهة، ثمّ إعداد الأمّة للقيام بمسؤوليّتها في هذه المراحل من جهة أخرى ثمّ تعضيد الجهاز المرجعي بالسند اللازم جماهيريًّا، وجامعيًّا، من جهة ثالثة.

النقطة الثالثة: فجّر الإمام الشهيد الصدر قدّس سرّه الثورة





الإسلاميّة في العراق، وهو لم يبلغ في نفوذه المرجعيّ، واتساع قواعده الشعبيّة مرحلة المرجعيّة العامّة العليا التي تعتبرها الأمّة صاحبة الكلمة الأخيرة في القرار الدينيّ.

ولا شكّ أنّه لم يكن لسيّدنا الشهيد الصدر آنذاك خيار آخر، غير تفجير الموقف السياسيّ، وإعلان المواجهة الصريحة مع النظام الديكتاتوريّ، كسرًا لحاجز الخوف الذي كانت السلطة تفرض هيمنتها على الشعب تحت ظلّه، وفتحًا للطريق أمام الثائرين لمواصلة العمل الثوريّ الإسلاميّ حتى بلوغ النتيجة المطلوبة، ولولا التصدّي الشجاع الذي قام به شهيدنا العظيم لأجهضت الثورة الإسلاميّة في العراق قبل ولادتها، ولاستأصلت الديكتاتوريّة القاسية التي خيّمت على صدور هذا البلد وشعبه كلّ جذور النشاط الإسلاميّ، ولقضت على حياة الشعب العراقي قضاء لا يرى معه الحياة لعدّة قرون.

غير أنّ النقطة التي لا يسعنا أن نتجاوزها دون الوقوف عندها هي الضعف الذي أبدته المرجعيّة العليا المتمثّلة في سيّدنا الأستاذ، وأستاذ أساتذتنا آية الله العظمى المرحوم السيّد الخوئي قدّس سرّه في إسناد الموقف الثوريّ العظيم الذي وقفه الإمام الشهيد الصدر إنّ هذا الضعف المشهود في موقف المرجعيّة العليا أدّى إلى انقسام الموقف الدينيّ في أشدّ ظروف المواجهة مع السلطة الشرسة، وبالتالي عدم شمولية التعاطف الجماهيريّ مع الإمام الشهيد شموليّة تهز الكيان الاجتماعيّ بأسره، وتبدو آثاره على القوات المسلّحة والحزبيين كغيرهم من فئات الشعب. ولا شكّ في نزاهة المرجعيّة العليا وحسن نواياها، ولكن إيماننا بذلك لا يمنعنا من الأسف على ما أصيبت به المرجعيّة العليا آنذاك من ضعف في الوعي والموقف السياسيّ، ترك آثارًا سلبيّة ليس على النهضة الإسلاميّة في العراق فحسب بل وفي المنطقة كلّها.





المرحلة الثالثة:
مرحلة الثورة وبناء الدولة



ليس من شكّ أنّ الأمّـة - أيّـة أمّـة - لا يمكن أن يتحقق لـها وجـود فـي الـواقـع الـخـارجـيّ، ما لم يوجد لـها كيان سياسيّ موحّد يمثّل إرادتها، ويجسّد هويّتها ويحقّق قيمها ومثلها، ويحمي مصالحها.

ومن هنـا فإنّ المسلمين، وإن كانوا من الناحية التاريخيّة أمّة تحمل مـواصـفـات الأمّـة الـواحـدة، غـير أنّـها ومـنـذ أمـد غـير بـعـيد فقدت بالتدريج عناصر هويّتها، وتبدّلت إلى مجاميع مبعثرة لا يجمعها إلا الإيمان القلبيّ بالإسلام، وبعض طقوسه العباديّة التي فقدت بدورها مضمونها الاجتماعيّ والسياسيّ، وتحوّلت إلى تقاليد اعتاد ممارستها المسلمون، كما اعتاد غيرهم على غيرها من التقاليد والعادات.

وهنـا تتجلّى أهمـيّة الـثورة الإسـلامـيّة الـكـبرى الـتـي قـادها الإمـام الـخمينـي، فإنّها ولأوّل مـرة فـي الـعـصـر الـجـديد والـقـريـب، أعـادت للمسلمين هويّتهم، ونفثت في الجسد الإسلاميّ حياة جديدة، فبُعثت الأمّة الإسلاميّة من جديد، وتحوّل الوجود الإسلاميّ المبعثر الهائم في خضم التيارات الذاهبة شرقًا وغـربًا، إلى وجود إسلاميّ فاعل متماثل على أرض الواقع، يعرف نفسه، ويؤمن بأهدافه وقيمه.

لقد ولدت الأمّة الإسلاميّة من جديد، عندما حمل الإمام الخميني راية الثورة الإسلاميّة فقاد الشعب الإيراني المسلم الذي تمثّلت فيه الأمّة الإسلاميّة بكلّ قيمها وآمالها، في مواجهة الاستكبار العالمي بكلّ ثقله، وخيله ورجله، حتّى مدّه الله سبحانه بالنصر الكامل والفتح القريب، فنكس أعلام الكفر والإلحاد التي رفعها أذناب الاستكبار في إيران، ونشر مكانها راية القرآن والإسلام، وأقام دولة عصريّة على أساس شريعة الإسلام وقوانينه وأحكامه.





ومن أجل أن نوضّح شيئًا من معالم هذه المرحلة من تاريخ الصحوة الإسلاميّة والتي تعتبر أهمّ مراحلها وأصعبها على الإطلاق، وشيئًا من سيرة رائدها الأكبر الإمام روح الله الموسوي الخميني نضع بحثنا في أربعة فصول:

الفصل الأول:

عرض سريع لأهمّ مراحل حياة الإمام الخميني قدّس سرّه

الإمام روح الله الموسوي الخميني، ينتهي نسبه الشريف إلى الإمام موسى ابن جعفر الصادق حفيد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولهذا لُقّب بالموسوي شأنه شأن غيره من السادة الشرفاء المنتسبين إلى الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.

ولد الإمام الخميني في العشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٢٠ هـ في مدينة خمين إحدى المدن التابعة لولاية «آراك» الولاية المركزيّة في إيران.

كان أبوه السيّد مصطفى الموسوي عالمًا كبيرًا درس على يد الزعيم الديني الأكبر في عصره الإمام الحسن الشيرازي، وبعدما أنهى دراساته العليا في النجف الأشرف وسامراء قفل راجعًا إلى خمين ليحلّ محلّ أبيه السيد أحمد الموسوي كبير علماء مدينة خمين.

وقد كان السيّد أحمد الموسوي عالمًا كبيرًا يسكن النجف الأشرف، فاستدعاه أهالي مدينة خمين إليها ليرشدهم ويتولّى شؤونهم الدينيّة فاستجاب لهم، وهاجر إلى خمين واستقرّ فيها.

وقد استشهد السيّد مصطفى الموسوي (والد الإمام الخميني) في السنة ١٣٢٠ هـ ، أي السنة التي ولد فيها الإمام الخميني، في الطريق ما بين آراك وخمين على يد بعض الأشرار والمفسدين، وهكذا قدّر لروح الله، الوليد الصغير أن ينشأ يتيمًا ترعاه يد الله سبحانه وعواطف أمّه وأقاربه لا سيّما عمّته (صاحبة) التي نذرت نفسها لرعايته والاهتمام بحسن تربيته.





درس الإمام أوائل العلم في مدينة خمين لدى مجموعة من علمائها وخاصة أخيه الأكبر السيّد مرتضى بسند يده، ثمّ هاجر إلى مدينة آراك سنة ١٣٣٩ هـ ليواصل دراساته فيها، وقد كانت أراك آنذاك من أهمّ حواضر العلم في إيران، وكانت حافلة بكبار أساتذة العلوم الإسلاميّة، وعلماء الدين، وعلى رأسهم زعيم الشيعة في عصره الإمام الشيخ عبد الكريم الحائري.

وحينما عزم الإمام الحائري على الرحيل إلى قم سنة ١٣٤٠ هـ صحبه مع من صحبه إليها فاستقرّ فيها، وحضّر عند الإمام الحائري دراساته العليا في الفقه والأصول حتى بلغ مرتبة الاجتهاد، ودرس على الشيخ علي أكبر اليزدي في علم الهيئة والنجوم، ودرس العرفان والفلسفة على يد العارف الإلهيّ الفيلسوف الكبير الشيخ محمّد علي شاه آبادي[١].

ولقد اهتم الإمام الخميني منذ أيامه الأولى بتربية النفس وتزكيتها اهتمامًا بليغًا، وقد كان منذ شبابه شديد الالتزام بمبادئ الأخلاق، مواظبًا على الآداب الإسلاميّة، زاهدًا في سيرته، ذاكرًا لله على كلّ حال، متهجّدًا ناسكًا، متواضعًا وقورًا لا يحيد عن سيرة المتّقين، ولا يعدل عن شيمة الصالحين، معرضًا عن اللغو، صامتًا إلا في ما يرضي الله من حديث فيه علم، أو ذكر فيه خشوع، أو كلامٍ يقضي حاجة أو يقود إلى هدى. وقد كان منذ أيامه الأولى مثالًا للخلق الرفيع، والفضيلة، والتقوى، حتى بلغ مبلغ العلماء الكبار في حوزة قم المقدسة، فقام بدور المربّي الصالح، والمعلّم الهادي، فبدأ بتدريس الأخلاق إلى جانب تدريسه للعلوم الأخرى كالفقه والأصول والفلسفة، واجتمع حوله المشتاقون إلى تهذيب النفس واكتساب مكارم الأخلاق، فصارت حوزته مجمعًا لأصحاب النفوس المهذّبة، والعلماء الجامعين لفضيلتي العلم والعمل.

وقد بدأ إلى جانب تدريسه للأخلاق بتدريس الفلسفة، وكان أوّل

١ | سيّد حميد روحاني، **بررسى و تحليلى از نهضت امام خميني**، الجزء ١، الصفحة ٢٧.





بدئه بتدريس الفلسفة سنة ١٣٤٧ هـ[١]، ثمّ اهتم بعد ذلك بتدريس العرفان، وكان إلى جانب ذلك يدرّس السطح العالي في الفقه والأصول، إلى أن بدأ بتدريس الفقه والأصول على مستوى البحث الخارج سنة ١٣٦٤ هـ، وقد كتب تلامذته المجتهدون كثيرًا من أبحاثه الفقهيّة والأصوليّة، منها ما كتبه عنه تلميذه آية الله الشيخ مجتبى الطهراني في الفقه، وما كتبه عنه تلميذه الآخر آية الله الشيخ جعفر السبحاني في الأصول. وهكذا واصل الإمام الخميني جهوده في تربية العلماء وتهذيب النفوس حتّى أضحت حوزة تدريسه أهمّ الحوزات التدريسيّة في قم على الإطلاق وأصبح الإمام الخميني الأستاذ الأوّل للتربية والتعليم فيها[٢]، وقد جاوز عدد المتخرّجين من حوزة بحثه ممّن بلغوا مرتبة الاجتهاد، الخمسمئة فقيهٍ[٣].

وقد صدرت له في شتّى فروع المعرفة الإسلاميّة كتب كثيرة نذكر منها ما يلي:

مصباح الهداية – في العرفان.

شرح دعاء السحر – في العرفان.

الأربعون حديثًا – في الأخلاق والعرفان.

تعليقة على فصوص الحكم – في العرفان.

تعليقة على مفتاح الغيب – في الفلسفة والعرفان.

أسرار الصلاة – أو معراج السالكين – في الأخلاق والعرفان.

رسالة في الطلب والإرادة – فلسفة وأصول.

تعليقة على شرح حديث رأس الجالوت للقاضي سعيد، وشرحه أيضًا شرحًا مستقلًا.

١ | حكى لي والدي أنّه حضر على الإمام الخميني تدريسه لشرح منظومة السبزواري، ويبدو أنّ ذلك كان في حدود سنة ١٣٥٠ هـ قبل أن يهاجر والدي إلى النجف الأشرف، وكان الإمام الخميني آنذاك من ألمع أساتذة الفلسفة في حوزة قم حسب حديث والدي رحمه الله.

٢ | سيّد حميد روحاني، **بررسى وتحليلى از نهضت امام خمينى**، مصدر سابق، الجزء١، الصفحة ٥١ وما بعدها.

٣ | المصدر نفسه، الصفحة ٤٢.



كشف الأسرار - في الكلام.

شرح حديث جنود العقل والجهل - في الأخلاق والعرفان.

آداب الصلاة - في الأخلاق والعرفان.

الرسائل - مجموعة رسائل في أصول الفقه ضمّت الأبحاث التالية: قاعدة لا ضرر، الاستصحاب، التعادل والترجيح، الاجتهاد والتقليد، التقية.

تحرير الوسيلة - دورة كاملة في فقه الفتوى.

كتاب الطهارة - في ثلاثة مجلدات - في الفقه الاستدلالي.

تهذيب الأصول - أبحاثه الأصوليّة التي كتبها عنه تلميذه، الشيخ جعفر السبحاني، في ثلاثة مجلّدات.

كتاب البيع - في خمسة مجلدات - في الفقه الاستدلالي.

الحكومة الإسلاميّة - تقرير بحثه حول الحكومة الإسلاميّة وولاية الفقيه.

المكاسب المحرّمة - مجلدان - في الفقه الاستدلالي.

الجهاد الأكبر - تقرير عن محاضرة أخلاقية ألقاها على تلامذته في النجف الأشرف.

تفسير سورة الحمد - تقرير محاضراته التفسيريّة حول سورة الحمد.

نبذة مختصرة عن حياته السياسيّة

بدأ الإمام الخميني حياته السياسيّة منذ أيام شبابه الأولى، إذ كان يتابع الأحداث السياسيّة في العالم، وفي إيران بدقّة، حتّى إنّه كان يراقب المناقشات السياسيّة في مجلس الشورى الشعبي في إيران وهو في مقتبل شبابه، وعاش الأحداث السياسيّة التي تتابعت على إيران بعد الثورة الدستوريّة حتى انتهت إلى استيلاء رضا خان على





مقاليد الحكم، وما نجم عن ذلك من هيمنة الحكم الاستبدادي المطلق على إيران، وسياسة التغريب الشامل الذي قام بتنفيذه رضا خان والتي أسفرت عن دكتاتوريّة حديديّة قائمة على أساس كبت الحريات وخنق الأنفاس وانطوت على مشروع إلغاء الحالة الدينيّة عن الوسط الاجتماعيّ بشكل كامل وقد رافق هذه الحملة فرض السفور على النساء، ومشروع توحيد الزيّ الذي حظّر على الإيرانيّين ارتداء الأزياء الوطنيّة وفرض عليهم ارتداء الزي الغربيّ والتضييقات الشديدة على العلماء والحوزات الدينيّة، وتحجيم النشاط الديني وحظر الشعائر الحسينيّة، ومطاردة العلماء المناضلين، وقد أدّى هذا المنهج الإرهابيّ إلى مواجهات عنيفة بين الشعب ورجال السلطة كان من أهمها مذبحة گوهرشاد في مشهد والتي حاصر فيها جلاوزة رضا خان الجموع المحتشدة في المسجد ثم داهمتهم بالسلاح الناري ممّا أدّى إلى سقوط العشرات من الناس بين قتيل وجريح.

وقد استمرت الهيمنة الغربيّة على السلطة في إيران بعد رضا خان، في عهد حكومة ولده محمد رضا، بل اشتدّت وتطوّرت ضمن أساليب معقّدة شملت مختلف نواحي الحياة من فكر، وثقافة، وفن، وأدب، وتقاليد، وسياسة، واقتصاد، وغيرها، وغيره، كلّ ذلك في ظلّ سياسة دكتاتوريّة قاسية قامت بتصفية كلّ صوت معارض مهما كان لونه، وحظّرت كلّ نشاط سياسيّ لا يخضع لإرادة الشاه، وقد كلّفت هذه السياسة الدكتاتوريّة حكومة الشاه، عبئًا ثقيلًا، اضطرّها إلى تأسيس أجهزة أمنيّة ضخمة، قامت بأقسى الممارسات الوحشية مع المناضلين والمجاهدين من تعذيب، وحرق، وإعدام، وسجن وغير ذلك.

وقد بلغت ديكتاتوريّة محمّد رضا أوجها بعد أن قضى على النهضة الشعبيّة لتأميم النفط التي قادها الزعيم الديني الإمام أبو القاسم الكاشاني على المستوى الشعبي، والدكتور محمد مصدق على المستوى السياسي والدولي (سنة ١٩٥٣ م) والتي اضطرّ الشاه على أثرها إلى مغادرة إيران، ولكنّ الجيش الإيرانيّ بقيادة زاهدي





القريب من الشاه قام بانقلاب عسكريّ حاصر فيه مقرّ الزعيمين وفرض عليهما الإقامة الجبريّة تحت حصار من الرقابة العسكريّة والأمنيّة المشدّدة، ثمّ عاد الشاه إلى إيران، بدعم أمريكي مضاعف وبدأ بتنفيذ سياسة جديدة تضم إلى الإرهاب الدكتاتوري السياسيّ، مشاريع عمرانيّة واقتصاديّة تهدف إلى توفير حالة من الرفاه الاقتصادي وتنمية الدخل الفردي، جلبًا لقلوب العامة، ولضمان الدعم الشعبي لحكومة الشاه، بعد أن فقدت شعبيّتها تمامًا بفعل ممارساتها القاسية أبان النهضة الشعبيّة لتأميم النفط.

كان الإمام الخميني يراقب هذه الأحداث بيقظة ووعي، ويدرس الحركات السياسيّة ويستوعبها تأملًا وفهمًا، ليتمكّن من خلال درسها الدقيق معرفة المنهج السليم الذي يضمن للتحرك السياسيّ الشعبيّ النجاح والتوفيق في سبيل تحرير البلاد من السلطة الدكتاتوريّة والهيمنة الغربيّة، وإقامة حكم إسلاميّ شعبي يضمن لفئات الشعب كافة حريّاتهم وحقوقهم.

وقد انتهى من خلال تجربته الشخصيّة ومواكبته للأحداث السياسيّة داخل إيران وخارجها، وأيضًا متابعته لماضي التاريخ السياسي للأمّة الإسلاميّة، إلى أنّ حركة التحرير الشعبيّة داخل المجتمع الإسلاميّ لا يكتب لها التوفيق والنجاح إلا بعد أن تتوفر على المقومات التالية:

الأولى: إسلاميّة الحركة في منطلقاتها وفي أهدافها وأساليبها، فإن الإسلام هو الذي يعيد للمجتمع الإسلاميّ هويّته الأصيلة، ويضمن للتحرك الاجتماعيّ وحدة الهدف والطريق، ويمدّ العمل السياسيّ الإسلاميّ بالطاقة الإيمانيّة التي توفّر للكوادر الحركيّة قوة الصمود في وجه العقبات والمشاكل، والقدرة على الثبات في سبيل الأهداف والمبادئ، وتنمّي في الإنسان الحركي المسلم روح الإيثار والتضحية والفداء.

الثانية: جماهيريّة الحركة، فإنّ التفاعل الجماهيري مع الحركة وأهدافها، من الشروط الأساسيّة لنجاح الحركة التحريريّة.

إنّ الحركة التحريريّة أينما كانت فسوف تواجه في الغالب استبدادًا





شرسًا متمتعًا بالقدرة المالية والسياسيّة والعسكريّة محميًا بشتّى أنواع الاستعدادات والقوى، لا يرحم ولا يتنازل، ولا يردعه أي رادع عن ارتكاب أبشع الجرائم في سبيل الحفاظ على عرش السلطة، ويستعمل مختلف الأساليب الترهيبيّة والترغيبيّة من أجل تحكيم سيطرته على الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة، ولا يألو جهدًا في استخدام الوسائل والأساليب التي يقضي بها على أي لون من ألوان النشاط السياسيّ المناهض. فلا بدّ في مواجهة هذا الاستبداد الشرس، من التعبئة الجماهيريّة الشاملة، ولا بدّ من التفاعل الشعبيّ الواسع المتواصل، لتتمكّن الحركة التحريريّة من زعزعة السلطة وإضعافها أولاً، ثمّ الإطاحة بها وتحقيق الأهداف التحريريّة ثانيًا.

الثالثة: القيادة، وهي المقوّمة الأساس للحركة التحريريّة، فمن المستحيل أن يقدّر للحركة التحريريّة النجاح في أهدافها ما لم تتمتع بقيادة صالحة توجّه الحركة التحريريّة في مسيرتها النضاليّة الشاقة، وتتّخذ القرار الحاسم في حالات المواجهة، وتوحّد الموقف الجماهيريّ في دعم التحرك التحريريّ، وتمدّ الكوادر الحركيّة بالفكرة والتخطيط وتلهمهم العزيمة والثبات والصمود وترفع فيهم المعنويات والقدرة الروحيّة التي تمكّنهم من مواصلة الطريق حتى تحقيق الأهداف التحريريّة. ولا يمكن للقيادة أن تحقق أهدافها ما لم تتوفر على شرطين أساسيّين:

١- الكفاءة العلميّة والعمليّة، وذلك بأن يكون القائد فقيهًا عادلًا، ذا مؤهلات قياديّة تمكنه من قيادة الجماهير في طريق التحرير وإقامة الحكم الإسلاميّ العادل.

٢- الثقة المتبادلة بين القائد الكفوء والجماهير، وذلك بأن تثق الجماهير بأهليّة القائد وكفاءته، فتسلم له قيادتها وتطيع أوامره وتواصل دعمه حتى النهاية. وأن يثق القائد أيضًا بجماهيره وأنّها وفيّة له في طريق التحرير وتحقيق أهدافه الثوريّة الكبرى.

وعلى هذا الأساس تبلور الفكر السياسيّ لدى الإمام الخميني قدّس سرّه، فقد أقام نظريته السياسيّة على الأسس التالية:





الأول: لا بدّ أن تتّخذ الحركة السياسيّة من الإسلام هدفًا، وأسلوبًا، وعقيدة ونظامًا لأنّ الإسلام هو الأطروحة الثوريّة الوحيدة القادرة على تعبئة الجماهير تعبئة ثوريّة تضمن لها النجاح على طريق التحرير، كما أنّه هو النظام الكفوء القادر على إرادة الحياة الإنسانيّة بما يضمن لها العدل والرقيّ والرفاه.

الثاني: لا يمكن للحركة الإسلاميّة أن تستغني عن الجماهير، فلا بدّ أن تحاول جاهدة في سبيل توفير الدعم الشعبيّ والتعاطف الجماهيريّ معها في مختلف مراحل جهادها وتحركها السياسيّ، ولا بدّ للحركة الإسلاميّة أن تستثمر الأدوات والفرص الزمنيّة التي توفر لها هذا الدعم الجماهيريّ الشامل.

الثالث: لا بدّ للحركة الإسلاميّة أن تتمتّع بقيادة فقهيّة عادلة كفوءة تثق بالجماهير، وتثق بها الجماهير.

وعلى هذا الأساس، فقد حاول الإمام الخميني في فترات متعدّدة من الزمن أن يقوم بتحركه السياسيّ، فلم يجد الظروف الاجتماعيّة السياسيّة التي تتناسب وطموحاته الثوريّة ولم يجد الظروف التي يتمكن خلالها من توفير الشروط اللازمة الآنفة الذكر للتحرك الإسلاميّ السياسيّ[١].

وقد عاصر الإمام الخميني ثلاثة أدوار لزعامات دينيّة تعاقبت على المجتمع الإيرانيّ: الأوّل زعامة الإمام الشيخ عبد الكريم الحائري في عهد رضا خان، والثاني زعامة الفقهاء الثلاثة: السيّد محمد تقي الخونساري، والسيّد محمد الحجّة، والسيّد صدر الدين الصدر، والثالث: زعامة الإمام السيّد حسين البروجوردي، وأدنى ما كانت تعاني منه هذه الزعامات الدينيّة، أنّها لم تكن على ثقة بوعي الجماهير لأهدافها ودعمها لها في الحركة التحريريّة دعمًا متواصلًا حتّى تحقيق الهدف. وقد كانت التجربة القاسية التي مرّت بها الزعامة الدينيّة خلال الحركة الدستوريّة، والتي أدّت إلى

١ | **بررسى و تحليلى از نهضت امام خميني**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحات ٩٥ - ١١٢.





أن تطال الأيدي الأثيمة الزعامة الدينيّة بالقتل والسجن، وكان من ذلك أنّ إعدام الزعيم الديني الكبير الشيخ فضل الله النوري، ثمّ قتل الزعيم الدينيّ الآخر السيّد حسن المدرّس، عدا أولئك الذين قضوا أعمارهم في النفي والسجن، ثمّ ما أعقب ذلك من انتكاسة الحركة التحرريّة وركود النشاط الدينيّ وتنامي النفوذ الأجنبيّ وتضاعف الكبت السياسيّ والدينيّ وتوغّل السلطة في سياساتها القمعيّة. كلّ هذه التجربة القاسية التي لم يكن قد مضى عليها زمن بعيد تركت آثارًا سلبيّة ليس على معنويّات الجماهير فحسب، بل وأيضًا على ثقة الزعامة الدينيّة بجدية الدعم الجماهيريّ ومدى استعداد الجماهير لمواصلة الدعم للقيادة الدينيّة في مواجهتها مع السلطة الدكتاتوريّة المهيمنة على مقدرات الشعب المسلم في إيران.

لقد درس الإمام الخميني نفسيّة الشعب الإيرانيّ فتعرّف على مواطن القوّة والضعف في هذا الشعب وأيقن بما لا مزيد عليه أنّ الروح الدينيّة والحالة المعنويّة في الشعب الإيرانيّ بلغت مرحلة من النضج والاستعداد للتضحية والصمود - خاصة بعدما قاساه الشعب من الأمرّين طيلة حكومة الشاهين البهلوي الأول والثاني - جعلته مؤهلة للقيام بنهضة شعبيّة لا تهدأ حتى تنتصر، ولا تخمد حتّى تتحقّق أهدافها.

وبقي ينتظر الفرصة المناسبة، وهي الفرصة التي تتوفر فيها العناصر التالية:

١- أن يتسنّى له مخاطبة الجماهير كقائد دينيّ يذعن لطاعته المؤمنون.

٢- أن تتوفر لديه مجموعة من الكوادر الحركيّة على مستوى العلماء وطلبة الحوزة العلميّة والمثقّفين ليقوموا بدور الجهاز التنفيذيّ لتوجيه الحركة الجماهيريّة وترشيدها وهدايتها نحو الأهداف المطلوبة.

٣- الحدث الاجتماعيّ الذي يتّخذ كموضوع للإثارة الجماهيريّة وتركيز الوعي السياسيّ فيها، ولتعبئتها وشحذها ضد السلطة





وأجهزتها الإعلاميّة والقمعيّة.

وبعد رحيل الإمام البروجردي آخر الزعماء الذين سبقوا الإمام الخميني في القيادة الدينيّة للشعب الإيرانيّ، عُرف الإمام الخميني في الأوساط الشعبيّة كقائد دينيّ على مستوى المرجعيّة العليا، ومن ناحية أخرى كان قد تخرج على يد الإمام الخميني حتى ذلك الحين مجاميع كبيرة من المجتهدين والعلماء، ممّا وفّر للإمام الخميني مجموعة كبيرة من العلماء والكوادر الدينيّة التي كانت تؤمن بمرجعيّته وأفكاره السياسيّة والاجتماعيّة، وكانت مستعدة لأن تعمل جاهدة في سبيل نشر أفكاره السياسيّة وتحقيق أهدافه. وهكذا توفر عنصران من الفرصة التي كان لا بدّ من توفّرها ليبدأ الإمام الخميني ثورته الإسلاميّة والجماهيريّة، وكان لا بدّ من العنصر الثالث، وهو الحدث الاجتماعيّ والسياسيّ الذي يصلح لكي يكون منطلقًا لثورة شعبيّة شاملة.

ثمّ إنّ حكومة الشاه هي بدورها أيضًا زعمت في رحيل الإمام البروجردي الذي كانت السلطة تخشى نفوذه الديني فراغًا على مستوى القيادة الدينيّة ذات النفوذ الشعبي الواسع وبالتالي فرصة ذهبيّة لتبدأ بتنفيذ الخطّة التي كانت قد أعدّاها سلفًا، تلك التي كانت تهدف أولًا إلى القضاء الكامل على الروح الدينيّة والحالة الإسلاميّة في الشعب الإيرانيّ وقطع صلته بماضيه الإسلاميّ وتراثه الديني، وثانيًا إلى القضاء على كلّ شيء من شأنه أن يكون مصدر قلق للحكومة تخشى منه على استقرارها أو على قدرتها في تنفيذ خططها وسياساتها، وثالثًا على تغريب إيران تغريبًا كاملًا تزول معه هويّته الدينيّة، وتستأصل به جذور الحسّ الدينيّ، والعاطفة الإسلاميّة نهائيًا.

فكانت الخطوة الأولى التي خطّتها سلطة الشاه في هذا السبيل تجميدها للبرلمان الوطنيّ ومجلس الأعيان وإعلانها لمشروع «اللجان المحليّة، قانون انجمن هاى ايالتي وولايتي» لتحلّ محلّ البرلمان والذي أُلغي فيه ولأوّل مرة شرط الحلف بالقرآن الكريم





للمنتخِبين، وذكرت بدلًا من **القرآن الكريم** كلمة «الكتاب السماوي» كما وأُلغي فيه شرط الإسلام من الناخبين والمنتخبين تعمّدًا إلى قطع صلة الشعب بالإسلام والقرآن الكريم، وتمهيدًا لسرقة هويته الدينيّة وسحق شخصيّته العقائديّة والحضاريّة، ووصولًا إلى تسليط الصهاينة وأعوانهم على مقدرات الشعب بالإسلام والقرآن الكريم، وتمهيدًا لسرقة هويته الدينيّة وسحق شخصيّته العقديّة والحضاريّة، ووصولًا إلى تسليط الصهاينة وأعوانهم على مقدّرات الشعب الإيرانيّ المسلم وثروات بلاده وخيراتها[1].

اجتمع الإمام الخميني بغيره من كبار علماء قم وشرح لهم المؤامرات الخطرة التي تنويها حكومة الشاه واتفق معهم على موقف الرفض والاستنكار لحكومة الشاه في إعلانها لمشروع اللجان المحليّة وإلغائها لشرط الإسلام في الناخبين والمنتخبين وإلغاء الحلف بالقرآن المجيد، وبدأ الإمام الخميني بإصدار بيانات استنكاريّة عديدة، يخاطب بها الناس تارة والحكومة أخرى، وانتشرت نداءاته بين الجماهير، فأبدت معها تفاعلًا منقطع النظير، وكان للموقف المساند الذي أبداه مراجع الدين في قم، وفي مشهد للإمام الخميني - وتبعهم في ذلك علماء النجف - تأثير بالغ في نفوس الجماهير، وقد صرّح في إحدى رسائله التي خاطب بها الحكومة قائلًا:

«إنّني أنصحكم مرّة أخرى أن تذعنوا لطاعة الله سبحانه وأن تعملوا بموجب الدستور، وإنّني أحذّركم من النتائج المرّة التي سوف تلحقكم من جرّاء مخالفة القرآن والأحكام الإسلاميّة التي يدلي بها علماء الأمّة، ومن مخالفة الدستور، ولا تلقوا بأنفسكم في هذا الميدان الملغم بالأخطار، وإلا فإنّ علماء الإسلام سوف لن يترددوا في إعلان رأيهم فيكم»[2].

ولقد اضطرت حكومة الشاه بعد أن واجهت مواقف الاستنكار

١ | **بررسى وتحليلى از نهضت امام خمينى**، مصدر سابق، الجزء١، الصفحات ١٤٦ - ١٤٨.
٢ | **صحيفة نور**، الجزء١، الصفحة ١٥.





والرفض الجماهيري، وشاهدت تفاقم الاعتراض الديني والشعبي إلى أن تتراجع عن موقفها وأعلنت إلغائها لمشروع اللجان المحليّة (بتاريخ ٧ آذر ١٣٤١ هـ ش، الموافق ٢٨ نوفمبر ١٩٦٢ م) واحتفل الشعب الإيرانيّ بهذا اليوم واعتبره انتصارًا كبيرًا للعلماء وعلى رأسهم قائد هذه النهضة الإمام الخميني.

هذا ولكن حكومة الشاه أصرّت وبإيعاز من الولايات المتّحدة على مواصلة مخططاتها، فأعلن الشاه بتاريخ ١٣٤١/١٠/٩هـ ش المصادف ١٩٦٣/١/٩م عن مشروع «الثورة البيضاء» التي تضمنت ست مواد، كانت الحكومة ترمي من ورائها إلى بسط يد الهيمنة الأمريكيّة على مقاليد البلاد سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، وقد حاولت حكومة الشاه العميلة أن تنفّذ هذه الخطة ضمن أطروحة تحمل شعار الإصلاح والعمران، لتبدو كأنّها تهدف إلى تنفيذ خطة إصلاحيّة تخدم العمّال والفلاحين وتضمن لهم حقوقهم العادلة، وترمي إلى نشر الثقافة ومحو الأميّة، ولكنّها لم تكن في واقعها إلا خطة مرسومة من قبل السياسة الأمريكيّة تضمن للولايات المتّحدة سيادتها الدائمة على إيران، وبسط نفوذها الثقافيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، في هذا البلد الاستراتيجيّ، تحت غطاء المشروع الإصلاحيّ.

كانت المواد الست التي أعلنها الشاه في ما أسماه بالثورة البيضاء عبارة عن:

١- إلغاء النظام الإقطاعيّ على أساس قانون الإصلاح الزراعي.

٢- تأميم الغابات والمراعي.

٣- بيع أسهم الشركات الحكوميّة لدعم مشروع الإصلاح الزراعي.

٤- إسهام العمّال في ريع المصانع والمعامل.

٥- إصلاح قانون الانتخابات.

٦- تأسيس «سپاه دانش» أي: جيش العلم لتعميم التعليم الإجباري.

وأخطر ما في هذه المواد المادتان الأخيرتان اللتان كانت الحكومة تهدف من خلالهما إلى بسط الهيمنة الأمريكيّة سياسيًّا وثقافيًّا، كما كانت المواد الأخرى تهدف في واقعها إلى بسط النفوذ الأمريكي في البلاد على المستوى الاقتصادي.

وحين أعلن الشاه ثورته البيضاء نهضت القيادة الدينيّة في إيران وعلى رأسها الإمام الخميني بإعلان الرفض لهذه الثورة جملةً وتفصيلًا، وضمّت إلى رفضها لثورة الشاه رفضها لسياسته في التبعيّة للولايات المتّحدة ودعمها للكيان الصهيوني.

لقد استطاع الإمام الخميني أن يضم إلى موقفه موقف سائر العلماء في قم ومشهد، فاتّخذوا موقفًا موحدًا ضدّ ما أسماه الشاه بالثورة البيضاء، وأعلنوا جميعًا وبكلمة واحدة حرمة المشاركة في الاستفتاء الشعبي على الثورة البهلوية الذي قررت حكومة الشاه أن تقوم به في تاريخ (٦ بهمن ١٣٤١هـش / ٢٦ يناير ١٩٦٣م) وأصدر الإمام الخميني بتاريخ ٢ بهمن ١٣٤١هـش / ٢٢ يناير ١٩٦٣ م بيانًا أعلن فيه حرمة الاشتراك في الاستفتاء وبيّن للناس مخالفة هذا الاستفتاء للدستور الإيرانيّ، ولمصالح الشعب، وما تخفيه حكومة الشاه وراء هذا المشروع من نوايا خطيرة تهدد استقلال البلاد وتبسط الهيمنة الأجنبيّة والنفوذ الصهيوني على مقاليد السياسة والثقافة والاقتصاد في إيران.

لقد انتشر البيان الذي أعلنه الإمام الخميني حول تحريم الاستفتاء واستنكار الثورة البهلوية التي أطلق عليها الشاه «الثورة البيضاء» بسرعة بين الناس، فتفاعلت معه الجماهير تفاعلًا منقطع النظير، ففي طهران انتفضت الجماهير وبدأت تجوب شوارع طهران يتقدّمها كبار العلماء تهتف بالاستنكار للثورة البهلوية ولعملية الاستفتاء التي أعلنتها حكومة الشاه وأعلن البازار (سوق طهران المركزي) مساندته المطلقة لموقف العلماء وأعلن الإضراب العام وأغلقت أبواب الحوانيت والمحلات التجاريّة تضامنًا مع النهضة الشعبيّة بقيادة العلماء، ولقد واجهت قوى الأمن والشرطة جماهير الناس التي





خرجت إلى الشارع بقسوة واستطاعت أن تكبح هذه الغضبة الشعبيّة إلى حين.

كان هذا التضامن الجماهيريّ مع العلماء مع مخالفتهم لنهضة الشاه ضربة قاصمة للخطة التي كان دبّرها لفرض هيمنة الثقافة والسياسة الأمريكيّة على إيران، ومن هنا كان لا بدّ للشاه أن يبادر بخطوة تضمن في أدنى الفروض انقسام الموقف الديني ضدّه وأن يوفر لخطته شيئًا من الدعم الشرعي، فقرّر أن يزور مدينة قم بتاريخ ٤ بهمن ١٣٤١هـ ش/ ٢٤ يناير ١٩٦٣ م ليلتقي فيها بعلمائها ويوجه منها نداء إلى الشعب يؤكد فيه على مساندة العلماء لثورته البيضاء، وبذلك يضمن الدعم الجماهيريّ لها ويفوّت الفرصة على الإمام الخميني ومَن معه من العلماء لتحريض الناس ضدّها.

غير أنّ الإمام الخميني أعلن بشدّة رفضه لاستقبال الشاه، واتّفق مع سائر العلماء على المقاطعة التامّة للشاه ورفض مقابلته في كلّ الأحوال، ثمّ أصدر الإمام الخميني بيانًا حرّم فيه الخروج لاستقبال الشاه وطلب فيه من الناس أن يلازموا بيوتهم في يوم قدوم الشاه وأن يقاطعوا مراسيم الاستقبال مقاطعة تامة.

وقد تضامنت الجماهير في قم مع علمائها فقاطعت مراسيم استقبال الشاه مقاطعة تامّة وأغلقت الحوانيت والمحلات ولازم الناس بيوتهم فخلت مراسيم استقبال الشاه من حضور العلماء والجماهير بل وأصبحت المدينة وكأنّها خالية من السكّان العاديّين ولا يتردد في شوارعها غير قوى الأمن والشرطة والجيش، وعدّة قليلة من الفلاحّين والعمّال الذين جلبتهم قوى الأمن قسرًا للمشاركة في مراسيم استقبال الشاه.

وجاء الشاه إلى قم فأغاظه بشدّة ما واجهه من المقاطعة الجماهيريّة فترك زيارة مرقد السيدة المعصومة، واستعجل في صياغة النداء الذي أزمع على أن يخاطب به الجماهير، فخرج النداء هزيلًا هاجم فيه علماء قم ووصفهم بالرجعيّة والتخلّف، وأشاد بنهضته البيضاء ثمّ قفل راجعًا إلى طهران بخفّي حنين، غير ظافر





من الدعم الدينيّ والشعبيّ بشيء. وبعد يومين من زيارة الشاه لقم (٦ بهمن ١٣٤١هـش / ٢٦ يناير ١٩٦٣ م) أجرت حكومة الشاه الاستفتاء الشعبيّ في ظل انتشار واسع لقوى الأمن والشرطة برغم المقاطعة التامّة التي أعلنها العلماء والقوى السياسيّة، وتضامنت فيها معهم الجماهير.

بعد ذلك، اجتمع الإمام الخميني بكبار علماء قم وأصدروا بيانًا هامًا تضمّن تأكيد العلماء على رفضهم لعملية الاستفتاء وشرحًا تفصيليًّا يبرهن بلغة القانون والدين على مخالفة ما أسماه الشاه بالثورة البيضاء لمواد الدستور ولمصالح الأمّة ولأحكام الشريعة، وقد وقّع هذا البيان تسعة من كبار علماء إيران، ممّا جعل البيان يعرف بالبيان ذي التواقيع التسعة، وكان الذين وقعوا هذا البيان هم:

١- روح الله الموسوي الخميني.

٢- محمد رضا الموسوي الگلبيگاني.

٣- محمّد كاظم شريعتمداري.

٤- محمد الموسوي اليزدي (المعروف بالداماد).

٥- مرتضى الحسيني اللنگرودي.

٦- أحمد الحسيني الزنجاني.

٧- محمد حسين الطباطبائي.

٨- هاشم الآملي.

٩- مرتضى الحائري.

واصل الإمام الخميني خطاباته الثوريّة وغدا يستثمر كلّ فرصة يجدها للحديث مع الناس ليكشف لهم عن النوايا الخبيثة التي تضمرها حكومة الشاه وعن الأهداف المشؤومة التي يبيتها للدين وأهله، وللبلاد وشعبها.

ومع قرب أيام عيد النوروز اتفق الإمام الخميني مع سائر العلماء على إعلان العيد حدادًا عامًا لما حلّ بالشعب الإيرانيّ من مصيبة التجاهر بمخالفة الدين واستئصال المؤمنين وفرض هيمنة







الكافرين، وأصدر بيانًا ثوريًّا ندّد فيه بحكومة الشاه ونواياه الخبيثة في محاربة الدين والعلماء وهتك الحرمات وفسح المجال للهيمنة الأجنبيّة على مصالح الشعب ومقدّراته، وأعلن فيه الحداد العام في عيد النوروز، وقد لقي هذا البيان صدًى واسعًا بين جماهير الشعب الإيرانيّ، وخاصة المثقفين منهم.

وفي يوم الخامس والعشرين من شوّال المصادف ٢ فروردين من السنة ١٣٤٢ هجريّة شمسيّة، وكردّ فعل من السلطة قام جلاوزة الشاه بمداهمة المدرسة المركزيّة للعلوم الدينيّة في قم (المدرسة الفيضيّة) أثناء احتفال جماهيريّ دينيّ بمناسبة الذكرى السنويّة لاستشهاد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، وقد أسفر هذا الهجوم عن مقتل جماعة من طلبة العلوم الدينيّة وآخرين ومنهم السيّد يونس الرودباري، وجرح كثيرين من الطلبة والناس العاديين، وقد حدث في اليوم نفسه هجوم مماثل من قبل جلاوزة السلطة على طلاب العلوم الدينيّة في المدرسة الطالبيّة بتبريز.

انتشر نبأ الهجوم على المدرسة الفيضيّة والطالبيّة، ومقتل طلاب العلوم الدينيّة بين الناس بسرعة وأثار فيهم العواطف الدينيّة ضدّ حكومة الشاه، وصعّد من معنويّاتهم الثوريّة بصورة قلّ أن سبق لها مثيل.

وقد استثمر الإمام الخميني هذا الحادث خير استثمار وبدأ في أحاديثه التي كان يلقيها على الناس الذين اعتادوا التردّد على بيته، وكذا في بياناته التي كان ينشرها بكشف نوايا السلطة في استئصال جذور الإسلام وفرض هيمنة المستعمرين على إيران وشعبها المسلم، ويؤكد على ضرورة مواصلة الناس حركتهم الثوريّة ضد السلطة وسياساتها الاستعماريّة القمعيّة[1].

ومن الجدير بالذكر تضامن علماء الشيعة في العراق وخاصة

١ | راجع لملاحظة خطابات الإمام الخميني وبياناته بهذه المناسبة وكذا ردود الفعل الشعبيّة والدينيّة التي خلّفتها حادثة الهجوم على المدرسة الفيضيّة، كتاب **نهضت امام خميني**، الجزء١، الصفحات ٣٥٦ إلى ٤٢٠.





كربلاء والنجف مع نهضة العلماء في إيران وعلى رأسهم الإمام الحكيم وقد بعث إلى الإمام الخميني وسائر علماء قم - بعد مذبحة المدرسة الفيضيّة - ببرقية يعلن فيها شجبه لسياسة الشاه ودعمه لنهضة علماء قم، طالبًا منهم الهجرة الجماعيّة إلى النجف استنكارًا لسياسات الشاه ضدّ الدين والشعب، وتمهيدًا لاتّخاذ موقف موحّد يشترك فيه العلماء كافّة في مواجهة نظام الشاه القمعي الدكتاتوري.

غير أنّ الإمام الخميني بعث ببرقية جوابًا على برقية السيّد الإمام الحكيم شكر له فيها رعايته للقضية الإسلاميّة في إيران واعتذر له عن الهجرة إلى العراق مؤكدًا على أنّ هجرة علماء قم إلى النجف يتضمن أخطارًا عظيمة وليس من مصلحة الدين والشعب أن يغادر العلماء إيران ويتركوا الساحة في إيران خلوًا من علمائها وكوادرها القياديّة الأولى.

وبمناسبة الذكرى الأربعينيّة لذكرى شهداء المدرسة الفيضيّة أصدر الإمام الخميني بيانًا هامًّا صعّد فيه مستوى المواجهة مع السلطة ولوّح فيه تحمّل الشاه مسؤولية الأحداث وأعلن عن عزمه على مواصلة الثورة وكتب إليه العلماء من مختلف المناطق في إيران يعلنون تضامنهم معه، فكتب إليهم جوابًا قال فيه:

«إنّ خطر إسرائيل على الإسلام وإيران لقريب جدًا، لقد عقد أو سيعقد قريبًا الميثاق مع إسرائيل في مواجهة الدولة الإسلاميّة. إنّنا بسكوتنا واعتزالنا سوف نفقد كلّ شيء، إنّ للإسلام علينا لحقًا، وإنّ لنبيّ الإسلام علينا لحقًا، في هذه الظروف العصيبة التي نرى جهود النبيّ العظيم الكبرى معرّضة للإبادة والزوال يجب على علماء الإسلام وكل مَن ينتمي إلى الإسلام أن يقوم بواجبه ويؤدي ما عليه... إنّي عزمت على أن لا أحيد عن موقفي ولا أكفّ عن مواصلة طريقي حتّى تكفّ هذه السلطة الغاشمة عن سياستها»[1].

وحان شهر محرم الحرام من السنة ١٣٨٢ هـ (يونيو ١٩٦٣ م)

١ | **صحيفة نور**، الجزء ١، الصفحة ٤٤.





المصادف (خرداد ١٣٤٢هـ ش) وكانت السلطة قد حسبت لهذا الموسم حسابه الخاص، واتّخذت إجراءات معيّنة لضبط الأمور والسيطرة التامّة على الأندية العامّة ومحافل العزاء الحسينيّ والخطباء وقرّاء المآتم الحسينيّة، وبهذه المناسبة أصدر الإمام الخميني بيانًا ندّد فيه بإجراءات السلطة في تحديد الشعائر الحسينيّة والسيطرة عليها ودعا فيها الخطباء والقائمين بالشعائر الحسينيّة إلى تذكير الناس بالأخطار التي تحيط بالإسلام وإيران وأنّ ما يحلّ بالإسلام والمسلمين في هذا العصر وخاصة خطر إسرائيل على الإسلام والأمّة الإسلاميّة ليس بأقلّ من نظام الحكم الأمويّ الذي ارتكب جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وكان عازمًا على استئصال جذور الإسلام[١].

لقد تحوّلت إيران في محرّم هذه السنة إلى ساحة تضج بالثورة والهتف المندّد بالسلطة واعتبارها تجسّد السلطة الأمويّة في مواجهتها مع رسول الله وأهل بيته، وقد تصاعدت الحركة الثوريّة بين الجماهير في يوم عاشوراء فبدأت الجماهير تطالب بسقوط الشاه وتندّد بدكتاتوريّته الشرسة، وتعلن ولاءها للإمام الخميني واستعدادها للتضحية والفداء في سبيل تحقيق أهدافه المقدّسة.

أعلن الإمام الخميني أنّه سوف يخطب أمام الجماهير في يوم عاشوراء في المدرسة الفيضيّة بقم، وبذلك السلطة غاية جهدها لتصرّفه عن ذلك، فأبى مصرًّا على ضرورة مخاطبته للجماهير في هذا اليوم مهما كلّف الأمر، وقد احتشد عشرات الآلاف من الجماهير في المدرسة وحواليها لاستماع خطبته، وفي عصر عاشوراء سنة ١٣٨٣ هـ وفي حشد غفير ملتهب من الجماهير ألقى الإمام الخميني خطبته التاريخيّة التي قال فيها:

«إنّ هذه السلطة تعادي الإسلام من أساسه، وتعادي العلماء، إنّها تريد أن لا تبقى للإسلام باقية، إنّها تريد أن لا تبقي لصغير هذا الشعب ولا لكبيره باقية، إنّ إسرائيل تريد أن لا تبقي للقرآن في البلد

١ | **نهضت امام خمينى**، مصدر سابق، الجزء١، الصفحة ٤٢٩.

باقية، إنّ إسرائيل تريد أن لا تبقي لعلماء الإسلام ولا لأحكام الإسلام في هذا البلد باقية، تريد أن لا تبقي للعلم والعلماء أثرًا في هذا البلد، إنّ إسرائيل دكّت المدرسة الفيضيّة بأيدي عملائها، إنّها تهاجمنا، تهاجم شعبنا، تريد أن تسيطر على اقتصادكم، تريد أن تبيد تجارتكم وزراعتكم، تريد أن تنهب ثرواتكم، إنّها تريد أن تنهب ثرواتكم، إنّها تريد أن تزيل كلّ العقبات التي تقف في طريقها وتحول دون تحقيق أهدافها، الذي يمنعها من تحقيق أهدافها هو القرآن فتريد أن لا يبقى القرآن، والذي يقف في طريقها ويمنعها دون تحقيق أهدافها، العلماء، المدرسة الفيضيّة وغيرها من مراكز العلم فلا بدّ أن تزيل هذه العقبات من طريقها لتصل إلى أهدافها ومآربها... إلخ»[1].

استمر الإمام الخمينيِ في خطبته الحماسية والجماهير منشدّة إلى كلامه، تهتف تارةً وتضج بالبكاء أخرى، حتى فرغ من خطبته العصماء وقد وضع النقاط على الحروف، وهاجم سلطة الشاه بأقصى حدود البلاغة والحكمة، وقد انتشرت تسجيلات هذه الخطبة في أقصى نقاط البلد لتنقل معها إلى قلوب الجماهير حماسًا حسينيًّا وتعاطفًا دينيًّا، ووعيًا سياسيًّا، وعزمًا خالصًا قلّ نظيره في تاريخ شعوبنا الإسلاميّة على مدى قرون.

لقد حقّق الإمام ومن خلال خطبه وبياناته غايات مهمّة منها:

الأولى: كسر حاجز الخوف في قلوب الجماهير ومدّها بالجرأة الثوريّة، والروح المعنويّة العالية.

الثانية: تحطيم الهيبة المفتعلة التي خلقتها أجهزة الإعلام لشخصية الشاه، ومهاجمته في شخصه واعتباره المسؤول الأول عن كلّ ما يعانيه الشعب وعاناه طوال حكومة الشاه من التخلّف الثقافيّ والاقتصاديّ، وعن كلّ الجرائم التي ارتكبتها وترتكبها أجهزة السلطة الأمنيّة والعسكريّة وغيرها.

الثالثة: كشف عمالة السلطة للأجانب والمستعمرين ونزع أقنعتها

١ | **نهضت امام خميني**، مصدر سابق، الجزء١، الصفحة ٤٥٦.

الشعبيّة المفتعلة وهدم قواعدها الشعبيّة ونفوذها الجماهيريّ بالكامل.

الرابعة: تفويت فرصة التلاعب بعواطف الناس وعقولها على السلطة وعمّالها، والحؤول دون الالتفاف على الثورة الإسلاميّة وقيادتها عن طريق زرع النفاق والخلاف بين تياراتها وقادتها وعناصرها الحركيّة، أو تشويه حقائقها وتحريف أهدافها ومقاصدها.

انتفاضة الخامس عشر من خرداد

لم تطق السلطة خطبة الإمام الخميني في يوم عاشوراء (سنة ١٣٨٣ هـ) فبعد ليلتين فقط أي في ليلة الثاني عشر من محرم المصادف للخامس عشر من خرداد داهمت جلاوزة السلطة دار الإمام الخميني في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل واعتقلته متّجهة إلى طهران العاصمة. وقد رافق ذلك هجوم واسع على بيوت العلماء والخطباء وأهل العلم، فاعتقلت في الليلة نفسها مجموعات كبيرة من العلماء والناشطين في الحركة الإسلاميّة من مختلف الفئات وبخاصة علماء الدين والخطباء وطلاب العلوم الإسلاميّة.

وفي صبيحة اليوم الثاني عشر من محرم الحرام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣/٦/٥م) المصادف (١٥ خرداد ١٣٤٢هـ ش) وفور انتشار نبأ اعتقال السيد الإمام الخميني انتفضت الجماهير في طهران وقم وشيراز وأصفهان وتبريز ومشهد وغيرها من مدن إيران وملأت الشوارع تهتف بالحياة للإمام الخميني وبالموت للشاه وتطالب السلطة بالإفراج عن الإمام، وتندّد بدكتاتوريّة الشاه وسياساته القمعيّة. ومن جهة أخرى، اتّخذت السلطة وبأمر من الشاه قرار المواجهة المسلّحة مع الانتفاضة الجماهيريّة وقمعها بكلّ الأساليب وبمنتهى العنف والقسوة ممّا أدّى إلى مقتل جماعة كثيرة من النّاس وبخاصة في طهران وقم، وبذلك سجّلت انتفاضة الخامس عشر من خرداد كأول انتفاضة جماهيريّة تعمّ البلاد وتواجه بالقمع الدمويّ





منذ استلام الشاه للسلطة في إيران.

استمرّت الاحتجاجات الجماهيريّة ضدّ حكومة الشاه تندّد باعتقالها للإمام وتطالب بإطلاق سراحه، واتّفقت كلمة العلماء في قم ومشهد وغيرهما من المدن في إيران وكذا علماء النجف على إدانة حكومة الشاه بالقضاء على الإمام الخميني لولا الوقفة الصامدة للعلماء والجماهير في وجه الشاه، وخاصة ما قامت به جماعة من علماء قم من الهجرة الجماعيّة إلى طهران محذّرين حكومة الشاه من أن تمسّ الإمام الخميني بسوء، ومطالبين إيّاها بالإفراج السريع عنه.

بالتالي، وبتاريخ ١٨ فروردين ١٣٤٣هـ ش (٧ أبريل ١٩٦٤ م) أطلقت السلطة سراح الإمام الخميني، وقد زعمت السلطة أنّ المواجهة القمعيّة القاسية لثورة الخامس عشر من خرداد واعتقالها للمئات من الكوادر الثوريّة وزجّهم في السجون، ونفي أعداد كبيرة أخرى منهم إلى النقاط النائية في البلد أخمدت وإلى النهاية نار الثورة الشعبيّة وأنّ الإمام الخميني سوف يكفّ أو يعجز عن القيام بتعبئة الجماهير مرة أخرى تعبئة ثوريّة ضدّ السلطة وسياساتها، كالتي حدثت في الخامس عشر من خرداد وما سبقتها من الأحداث والمواقف.

ولكن ما إن أطلقت السلطة سراح الإمام الخميني حتّى عاد الإمام يمارس خطابه الثوري، وخاصة بعد أن قامت سلطة الشاه في إيران بمنح الأمريكان حق الحصانة أو ما يعبر عنه بـ «كابيتولاسيون» الذي يحمي الأمريكان من القضاء الإيرانيّ عند ارتكاب أيّة مخالفة في إيران، وكان لا يحق بموجبه أن يبادر القضاء الإيرانيّ بالحكم على أيّ منتسب إلى الدولة الأمريكيّة مهما كانت جريمته التي ارتكبها، وإنّما على القضاء الإيرانيّ إرجاع الأمر إلى السلطة الأمريكيّة لترى في المتّهم أمرها، إن شاءت حكمت عليه وإن شاءت خلّت عنه.

خطب الإمام الخميني خطبة سياسيّة هامّة بتاريخ ٤ آبان سنة ١٣٤٣هـ ش المصادف ٣٦ اكتوبر ١٩٦٤ ميلاديّة، ندّد فيها بهذا القانون الاستعماري وقال فيها:







«لقد سحقت عزّتنا، وأهدرت كرامة إيران، أهدرت كرامة الشعب الإيراني، إنّهم صادقوا على قانون يلحقنا بمعاهدة فينا، إنّها تعني أنّ المستشارين العسكريين الأمريكان وعوائلهم وموظفيهم، وخدمهم، مصونون محميّون في غيران مهما ارتكبوا من جرائم ومخالفات، إنّني أنذركم بالخطر، حذار أيّها الجيش الإيراني من هذا الخطر، حذار أيّها السياسيّون الإيرانيّون من هذا الخطر، والله إنّ السكوت لجريمة يعاقب الله عليها، خطيئة كبيرة والله أن لا يصرخ الإنسان معترضًا، يا قادة الإسلام أنقذوا الإسلام، يا علماء النجف، أنقذوا الإسلام، يا علماء قم أنقذوا الإسلام»[١].

ثمّ أصدر بيانًا هامًا في التاريخ نفسه أعلن فيه:

«ليعلم العالم أنّ مشاكلنا ومآسينا كلّها من صنع الأجانب، من صنع أمريكا، إنّ الشعوب الإسلاميّة تكره المستعمرين عمومًا وتكره أمريكا بالخصوص، أنّ أمريكا هي التي تدعم إسرائيل وحماتها، أمريكا هي التي تساند إسرائيل لتقوم بتهجير المسلمين العرب من فلسطين»[٢].

على أثر هذا الموقف الثوريّ الذي أعلنه الإمام الخمينيّ بادرت سلطة الشاه بنفي الإمام الخمينيّ إلى تركيا وذلك بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٦٤ م وبقي فيها تحت الإقامة الجبريّة وفي حصار من قوى الأمن التركيّة في مدينة بورسه إلى أن هاجر إلى العراق بتاريخ ٥ أكتوبر ١٩٦٥ م.

هاجر الإمام الخميني إلى العراق واستقرّ في النجف الأشرف الحاضرة العلميّة الكبرى، واجتمع إليه الفضلاء والعلماء وبدأ يمارس تدريس الفقه الاجتهاديّ وأصبحت حوزة تدريسه من أهمّ الحوزات التدريسيّة ومن طرازها الأوّل في النجف الأشرف، وفي يناير عام ١٩٦٩ م بدأ البحث عن «ولاية الفقيه» وأرسى نظريّته الفقهيّة عن أساس الحكم في الإسلام على مبدأ الولاية.

١ | **كوثر**، الجزء ١، الصفحة ١٦٩.

٢ | **صحيفة نور**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٠٩.





لم يكن الإمام الخميني أوّل فقيه إماميّ يقول بولاية الفقيه بل سبقه إلى ذلك كثير من فقهاء المذهب الإماميّ اشتهر منهم المولى أحمد النراقي الذي كتب بحثًا واسعًا تحت هذا العنوان، وصاحب الموسوعة الفقهيّة الكبرى **جواهر الكلام**، ولكنّ الذي تميّز به الإمام الخمينيّ عن غيره من الفقهاء تطبيقه لهذه النظريّة وتأسيسه لدولة كبيرة حديثة على أساس مبدأ ولاية الفقيه.

وقد استمر إلى جانب ممارساته العلميّة يبعث برسائله المكتوبة والمسموعة إلى الشعب الإيرانيّ يحثّه على مواصلة النضال ضدّ الظلم برغم القسوة التي كانت سلطة الشاه تعامل بها ثورة الإمام الخميني وكلّ ما يمتّ إلى الإمام الخمينيّ بصلة، حتى أصبحت الدعوة إلى الإمام الخميني وإلى أفكاره جريمة تعاقب عليها سلطة الشاه أشدّ العقاب، وقد استشهد في هذا السبيل كثير من العلماء والمثقّفين والشباب المؤمن الثائر وكان في مقدمة مَن استشهدوا في هذا الطريق آية الله السعيدي وآية الله الغفاري، من كبار علماء طهران.

في الأول من شهر أبان سنة ١٣٥٦هـ ش المصادف (٢٣ أكتوبر ١٩٧٧م) توفي فجأة وبصورة مشبوهة نجل الإمام الخميني الأكبر آية الله السيّد مصطفى الخميني (وكان يشتبه في تدخّل عناصر السافاك، أي جهاز استخبارات الشاه في الحادث) وكان رحمه الله من العلماء المجاهدين الصابرين، وكان سندًا قويًا لأبيه في مراحل الثورة كافّة منذ بدايتها، وعلى أثر ذلك بدأ الشعب الإيرانيّ يتعاطف مع الحادث تعاطفًا منقطع النظير، وانطلقت فئات الشعب في جميع المناطق والمدن تقيم مجالس التأبين والعزاء بشكل واسع، وقد استثمرت هذه الاجتماعات من قبل الثوّار لنشر أفكار الإمام الخمينيّ التحرّرية بين فئات الشعب من جديد، والتنديد بالسياسة القمعيّة والاستعماريّة التي تنتجها سلطة الشاه، حتّى عمّت البلاد موجة من التعاطف الإيجابيّ مع الإمام وأفكاره من جانب، وأمواج من الاستياء العام والكراهية للشاه وسلطته وسياسته، من جانب آخر.





وبهذه المناسبة ألقى الإمام الخميني على تلاميذه في النجف الأشرف كلمة هامّة اعتبر فيها وفاة نجله لطفًا إلهيًّا خفيًّا، وحدّد فيه أهداف ثورته وقدّم فيها توصيات هامّة للشعب الإيراني كان من أهمّها ضرورة التلاحم الثوريّ بين جميع فئات الشعب في نضاله ضدّ استبداد الشاه والاستكبار العالميّ، وأكّد فيها بصورة خاصة على ضرورة التلاحم بين علماء الدين وطلبة الحوزات الدينيّة من جانب والمثقّفين والجامعيّين من جانب آخر.

وجدت سلطة الشاه نفسها مضطرّة للوقوف بوجه هذا التعاطف الجماهيريّ مع الإمام وثورته، وتنفيذ خطّة إعلاميّة تهدف إلى زعزعة شعبيّة الإمام ونفوذه الجماهيريّ الذي كشفت مراسيم تأبين السيّد مصطفى الخميني عن مدى سعتها وعمقها، فقامت بنشر مقال عن شخصية الإمام في صحيفة اطلاعات بتاريخ ١٧ دي ١٣٥٦هـ ش المصادف ٧ يناير ١٩٧٨ م بتوقيع مستعار، وقد تعرض هذا المقال لشخصيّة الإمام الخميني بسوء ممّا أدّى إلى تأجيج الرأي العام ضدّ السلطة، فعطّلت الحوزة العلميّة بقم دروسها اعتراضًا على السلطة لكونها السبب في نشر المقال، ثمّ انتفض طلاب العلوم الدينيّة ومعهم مختلف فئات الناس (بتاريخ ١٩ دي ١٣٥٦هـ ش المصادف ٩ يناير ١٩٧٨م) وملأوا شوارع قم، وكنت شاهدًا وحاضرًا آنذاك مع مَن حضر من جماهير الناس والطلبة للاعتراض على السلطة والتنديد بسياساتها الاستبداديّة القمعيّة.

من هنا، بدأت الانتفاضة الجديدة التي جابهتها السلطة بأقسى الأساليب من القتل الجماعيّ والسجن والتعذيب، واتّسعت دائرة المظاهرات والاحتجاجات الجماهيريّة فعمّت جميع المدن الكبرى وكثيرًا من المدن الصغرى، وبالتدريج عمّت كلّ أنحاء البلاد. وجاء شهر رمضان فاستثمر علماء الدين والخطباء هذه الفرصة لتعميق الحركة الثوريّة في نفوس الجماهير ومدّها بروح الصمود والتركيز على ضرورة الصبر ومواصلة الدرب حتى الغاية المنشودة.

وبدأ الإمام الخميني يؤكد في نداءاته وبياناته أنّ الثورة مستمرّة حتّى

سقوط الشاه وقيام حكومة عادلة إسلاميّة تعمل بالقرآن وتطبّق الإسلام، فحدّد أهداف الثورة بوضوح في هذين الأمرين: سقوط حكومة الشاه وقيام الحكومة الإسلاميّة العادلة.

وبعد شهر رمضان، استثمرت كوادر الثورة فرصة صلاة العيد فحوّلوها إلى مظاهرة صاخبة ضدّ السلطة ثمّ أعلنوا فيها مواصلة الاحتجاج الجماهيريّ وحدّدوا وقتًا لاحقًا لمظاهرة احتجاجيّة عامّة وذلك في اليوم ١٧ شهريور ١٣٥٧هـ ش المصادف ١٨ أيلول ١٩٧٨م، فامتلأت شوارع طهران بالجماهير المعترضة فجابهتها سلطة الشاه بعنف، وفتحت قوات الشاه النار على الجماهير، فسقط من جراء ذلك عشرات القتلى بل المئات منهم فكانت المذبحة المعروفة بمذبحة شهريور.

زادت مذبحة شهريور لهيب الثورة، واشتد الحماس الثوريّ بين مختلف فئات الناس فأعلن المعلّمون والتجار والحرفيّون والعمّال الإضراب العام عن العمل حتى سقوط نظام الشاه، واتّسعت دائرة الإضرابات التي شملت الموظّفين والعمّال في شركة النفط الإيرانيّة، كلّ ذلك بتوجيه من الإمام وعبر نداءاته ورسائله المستمرّة التي كان يخاطب بها الجماهير، سواء الرسائل المكتوبة أم المسموعة التي كانت تنتشر بسرعة في أنحاء البلاد كافّة.

بدأت الحكومة العراقيّة، وبإيعاز من حكومة الشاه التي كانت تربطها بحكومة البعثيين آنذاك علاقة وطيدة، تضغط على الإمام الخميني وتطالبه بالكفّ عن نشاطه السياسيّ ضدّ حكومة الشاه، ولكنّ الإمام الخميني رفض ذلك رفضًا حاسمًا، وأصرّ على مواصلة نشاطه السياسيّ معلنًا عن أنّ ذلك واجبه الشرعيّ الذي لا يرى محيدًا عنه. عند ذلك أجبرت السلطات العراقيّة الإمام الخميني على مغادرة العراق فتوجه إلى الكويت ولكنّ السلطات الكويتيّة منعته من دخول أراضيها، وعندما وجد الإمام الخميني أنّ دول المنطقة ترفض دخوله لموقفه من حكومة الشاه وعلاقاتها الوطيدة بالشاه وحكومته، توجّه إلى باريس، فغادر مطار بغداد متّجهًا





إلى باريس بتاريخ (١٣ آبان ١٣٥٧هـش، المصادف ٤ نوفمبر ١٩٧٨م).

لقد صدقت في ثورة الإمام الخميني آيات الكتاب الكريم ووعود الله العظيم وكان من جملة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[1] فكلّما مكر المستكبرون انقلب عليهم مكرهم، فقد ضيّقوا في المنطقة على الإمام الخميني، مكرًا منهم، ممّا اضطر الإمام الخميني لكي يغادر إلى باريس فانقلب المكر عليهم حيث توفرت لديه فرصة مناسبة للاستفادة من وسائل الإعلام العالميّة، ووسائل الاتّصال المتوفّرة هناك، فيوضح من جانب للرأي العام العالميّ أهداف ثورته ويكشف عن الممارسات القمعيّة واللا إنسانيّة التي ترتكبها سلطة الشاه، ومن جانب آخر يستفيد من المنابر الإعلاميّة المتاحة له ووسائل الاتّصال المتيسّرة هناك لتوجيه الخطاب إلى الشعب الإيرانيّ بسهولة وفي الزمن المناسب، فكانت هجرته إلى باريس في هذه الفترة الزمنيّة فرصة مناسبة لتصعيد الثورة الإسلاميّة ومواصلتها.

بدأت حكومة الشاه عدّها العكسيّ منذ الانطلاقة الجديدة للثورة يوم ١٩ دي ١٣٥٦هـش (٩ يناير ١٩٧٨م) واشتدّت سرعة هذا العدّ العكسيّ بعد مذبحة السابع عشر من شهريور حيث بدأت حكومة الشاه تتخبّط في مواقفها وبدأ الشاه يقيل حكومة تلو أخرى فأقال خلال سنة الثورة حكومة هويدا، ثمّ حكومة جمشيد آموزگار، ثمّ حكومة شريف إمامي، وكلّ ذلك لم ينفع شيئًا في إخماد لهيب الثورة والسيطرة على البلاد، فلجأ الشاه إلى الجيش، وأقال حكومة شريف إمامي وأحلّ محلّها حكومة أزهاري القائد العسكريّ، فبالغ في استعمال الشدّة وفرض الأحكام العرفيّة على البلاد، وحكم بمنع الاجتماعات، ومنع التجوّل ليلًا، ونشر الجيش في المدن الكبرى، فملأت الدبابات والناقلات العسكريّة شوارع المدن وميادينها ولكن من دون جدوى.

١ | سورة **النمل**، الآيتان ٥٠ و٥١.





لقد واصل الشعب ثورته بقيادة الإمام الخميني الذي كان يرعى الثورة لحظة فلحظة ويحدّد المواقف موقفًا موقفًا، وهو يتقدّم نحو غايته التي ينشدها خطوة فخطوة، فاضطرّ الشاه إلى أن يغيّر سياسته في مواجهة الثورة، فقرّر أن يلتفّ عليها ويواجهها بالتحايل والخديعة، فأعلن اعتذاره للشعب وأنّه وعى ما يعانيه الشعب من المشاكل ووعد بإطلاق سراح السجناء السياسيّين وانتهاج سياسة الفضاء السياسيّ الحرّ وإطلاق الحريات السياسيّة وفسح المجال لحريّة التعبير وغير ذلك من الوعود، وأقال الحاكم العسكريّ، واختار للحكومة وجهًا سياسيًّا كان يعدّ من الشخصيّات المعارضة وهو شابور بختيار، زعمًا منه أنّ الخديعة سوف تنطلي على الشعب، وأنّ قيادة الثورة سوف تفقد بذلك المبرّر الذي تستطيع أن تستثير به الجماهير وتدعوها لمواصلة الثورة والصمود في طريقها علمًا أنّ الثورة بدأت تضغط على الشعب وتكلّفها كثيرًا من الخسائر الروحيّة والماليّة من جانب، ومن جانب آخر بدأت تدخل مداخل صعبة سبّبها الإضراب العامّ في الأسواق ومعاهد التعليم والمعامل والمصانع ومنها شركة النفط التي سبّب إضرابها العامّ توقف عجلة الاقتصاد في البلد من جهة وانعدام الوقود من جهة أخرى، والفصل هو فصل الشتاء وموجة البرد الشديد لفّت البلاد شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

وفي اليوم ٢٦دي ١٣٥٧ هـ ش، المصادف ١٦ يناير ١٩٧٩م غادر شاه إيران البلاد فاحتفل الناس بذلك وابتهجوا أشدّ الابتهاج وامتلأت الشوارع بالجماهير التي كانت تهتف بالموت للشاه وبالحياة والنصر للإمام الخميني.

وفي الوقت نفسه، أعلن الإمام الخميني عن تأسيسه لمجلس قيادة الثورة، ثمّ أعلن عن عزمه على العودة إلى البلاد فرحّبت الجماهير بهذا القرار، وبدأت تستعد لاستقبال الإمام، ولكن حكومة شابور بختيار عارضت هذا القرار، فأغلقت المطارات وألغت رحلات الطيران القادمة من خارج البلاد.

غير أنّ الناس عندما بلغهم قرار الإمام بالعودة ملأوا شوارع طهران






مطالبين بعودة الإمام، وهاجر علماء قم وطلابها إلى طهران وأعلنوا اعتصامًا مستمرًا في جامعة طهران مطالبين بعودة الإمام، والتحق بهم الجامعيّون أساتذة وطلابًا، فتحوّلت طهران إلى شعلة من اللهيب والحماس الجماهيريّ الضاغط على الحكومة بإزالة الموانع وإخلاء الطريق لعودة الإمام، ممّا اضطرّ الحكومة للتراجع أمام هذا السيل المتدفق من الجماهير وإصرارها على عودة الإمام.

وفي اليوم ١٢ بهمن ١٣٥٧هـ ش، المصادف للأول من فبراير ١٩٧٩م هبطت الطائرة التي كانت تقلّ الإمام في مطار مهراباد في العاصمة طهران، فكان يوم عيد الجماهير وأقبلت الملايين من أرجاء البلاد كافّة لتستقبل قائدها المظفّر الإمام الخميني. فاستقبلته الملايين استقبالًا منقطع النظير، واصطفّت الجماهير في الطريق الذي كان يصل بين المطار ومقبرة الشهداء لترحّب بالقائد المظفّر وتسلّم عليه، فانطلق الإمام من المطار إلى مقبرة الشهداء، ليلقي أوّل خطاب جماهيريّ له بعد وصوله إلى البلاد وليحدّد خطوات الثورة المستقبليّة.

خطب الإمام في الجماهير الحاشدة خطابًا سياسيًّا ثوريًا، وأعلن في خطابه عن ضرورة تغيير النظام الأساسيّ في البلاد بقرار من الشعب، وعن تأسيس الدولة الإسلاميّة، وبعد أربعة أيام أي في اليوم السادس عشر من بهمن المصادف ٥ شباط ١٩٧٩م أعلن عن الدولة الإسلاميّة برئاسة السيد مهدي بازرگان. وما إن أعلن الإمام عن تأسيسه للدولة الإسلاميّة برئاسة بازرگان حتّى ملأت الجماهير شوارع المدن وأعلنت عن إسنادها لهذه الدولة وتأييدها لها.

وفي اليوم ١٩ بهمن ١٣٥٧هـ ش، المصادف ٨ شباط ١٩٧٩م أعلنت قطاعات كبيرة من القوة الجويّة تأييدها للثورة وطاعتها للإمام الخميني وكان لذلك تأثير بالغ على معنويات الجيش، فعلى أثر ذلك بدأت مجاميع من الجيش الإيرانيّ تعلن ولاءها للإمام، وأصدر الإمام بيانًا مهمًّا طلب فيه من الجنود أن يتركوا ثكناتهم العسكريّة ويلتحقوا بجماهير الشعب، وطلب مثل ذلك من الضباط





والقادة العسكريّين وطلب من الشعب حسن السلوك مع الجيش عامّة واعتباره أخًا للشعب وشريكًا مساهمًا في الثورة، فكان لذلك الأثر البالغ في جلب قطاعات كبيرة من الجيش وانضمامها إلى صفوف الشعب وتحييد قطاعات أخرى، حتّى شعر قادة الجيش الذين كانوا ما زالوا أوفياء للشاه ومقيمين على طاعته أن لا حول ولا قوة وأنّ الروح السائدة في قطاعات الجيش هي روح الولاء للثورة وقائدها والشعب وقضيته، والتمرّد على الشاه والقادة الأوفياء لسلطته وحكومته.

انتصار الثورة الإسلاميّة

وفي اليوم ٢١ بهمن ١٣٥٧هـ ش، المصادف ١٠ فبراير سنة ١٩٧٩م أعلنت قيادة الجيش عن الأحكام العرفيّة المشدّدة ومنع التجوّل العام في طهران، ولكن الإمام الخميني دعا الشعب إلى نقض هذا القرار نقضًا جماعيًّا والخروج إلى الشوارع والاحتجاج على السلطة وقراراتها الظالمة، ثمّ انضمّت إلى صفوف الجماهير قطاعات من الجيش الإيرانيّ فارتفعت معنويات الجماهير فاقتحمت الثكنات العسكريّة ومؤسسات الدولة العسكريّة والأمنيّة وبدأت مقرّات الشرطة والجيش ومراكز الإدارة الحكوميّة تسقط واحدة تلو الأخرى بيد الجماهير، حتّى انتهى الأمر إلى اقتحام الثوّار لمبنى الإذاعة والتلفزيون، وذلك مساء ذلك اليوم وهو ٢١ بهمن ١٣٥٧هـ ش/ ١٠ فبراير ١٩٧٩م.

وعندئذٍ أذيع نبأ انتصار الثورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخميني من الإذاعة والتلفزيون، وتشكّلت لجان الثورة بقرار من مجلس الثورة فاستلمت إدارة البلاد إلى أن بدأت الدولة الإسلاميّة برئاسة السيّد بازرگان عملها وبدأت تمارس دورها في إدارة أمور البلاد.

وبدأ الإمام الخميني منذ اللحظة الأولى من انتصار الثورة الإسلاميّة بتأسيس مؤسسات الدولة الإسلاميّة وتشييد أسس النظام الإسلاميّ فأعلن أولًا عن الاستفتاء الشعبيّ العام لاختيار نوع النظام، وهل أنّ







الشعب يختار النظام الإسلاميّ أو يختار لونًا آخر من النظام، فجرى الاستفتاء الشعبي العام بتاريخ ١٢ فروردين ١٣٥٨ هـ ش، المصادف للأول من نيسان ١٩٧٩م، على اختيار الجمهوريّة الإسلاميّة إيجابًا أو سلبًا فأسفرت النتائج عن ما يجمع الإجماع الشعبيّ على اختيار الجمهوريّة الإسلاميّة وذلك بنسبة ٩٨،٢% من مجموع الناخبين في استفتاء حرّ وهو الأول من نوعه في تاريخ إيران.

إلى جانب هذا، بدأت الأحزاب المعادية للإسلام من القوميّين والليبراليّين والشيوعيّين تدبّر أنواع المؤامرة والكيد للنظام الإسلاميّ الجديد كان من أهمّها الاضطرابات التي مهّدت لها هذه الأحزاب في آذربيجان وكردستان وتركمان صحرا وخوزستان، تحت شعار المطالبة بالحكم الذاتيّ للقوميّات التركيّة والكرديّة والعربيّة وغيرها من الشعارات وأعقب ذلك محاولة بعض القطاعات من الجيش الإيرانيّ الموالي للشاه القيام بإنقلاب عسكريّ، ولكنّ حكمة الإمام الخميني في الإدارة وحزمه ووفاء الجماهير للثورة وأهدافها أفشلت كلّ تلك المؤامرات رغم كثرتها وتنوّعها، وظلّت الجمهوريّة الإسلاميّة تخطو نحو أهدافها إلى الأمام.

ثمّ بدأت مؤسسات النظام الإسلاميّ تقام واحدة تلو الأخرى، فانتخب الناس ممثلين لهم في مجلس الخبراء لإقرار النظام السياسيّ وتدوين مسودّة الدستور الإسلاميّ ثمّ عُرض على الاستفتاء الشعبيّ فصادقت الجماهير على الدستور الإسلاميّ بما يشبه الإجماع الشعبي العامّ، ثمّ انتخب على ضوء من الدستور أعضاء مجلس الشورى الإسلاميّ، ثمّ انتخب رئيس للجمهوريّة، وهكذا بدأت مؤسسات الدولة الإسلاميّة الجديدة طريقها إلى الوجود فقامت دولة إسلاميّة حديثة هي الأولى من نوعها في العصر الجديد، بل الأولى في التاريخ الإسلاميّ بعد عصر الإمامة الراشدة.

كان أبو الحسن بني صدر أول رئيس للجمهوريّة في إيران وفي عهده شنّ الجيش العراقيّ بقرار من صدام حسين الرئيس البعثي للحكومة العراقية هجومًا واسعًا على الجمهوريّة الإسلاميّة بنيّة القضاء عليها

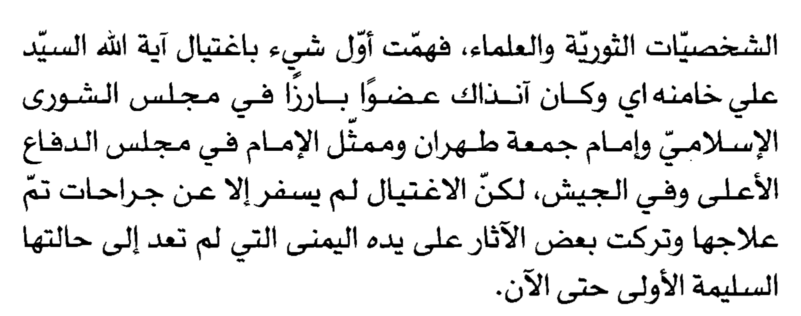


زعمًا منه أنّ انفراط الجيش الإيرانيّ بعد الثورة الإسلاميّة وعدم وجود قوّة عسكريّة أخرى تتولّى حماية البلاد من الاعتداء الأجنبي وفّرت له الفرصة الذهبيّة لكي يحقق انتصارًا سريعًا على الجمهوريّة ويحتلّ بذلك لدى أسياده الغربيّين والشرقيّين موقع البطل المنتصر. وكان ممّا يشجعه على ذلك وجود بني صدر على رأس نظام الحكّام في البلاد، والذي كان بدوره غير مؤمن بالثورة وأهدافها راميًا إلى فرض توجّهاته الليبراليّة على إدارة البلاد ويرغب في التخلّص من الإمام والمؤسسات الثوريّة والاستبداد بالحكم.

استمرّت قوات النظام العراقي في احتلالها لقسم كبير من الأراضي الإيرانيّة من بينها إحدى عشرة مدينة مثل خرمشهر وبستان وسوسنگرد ومهران ودهلران وإسلام آباد وقصر شيرين، وظلّت تواصل تقدّمها داخل الأراضي الإيرانيّة هذا من جانب، ومن جانب آخر بدأ بني صدر يهاجم المؤسسات الثوريّة ويمهّد السبيل للأحزاب العلمانيّة والشيوعيّة والليبراليّة القوميّة للسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد ولم تثمر كلّ المحاولات التي قام بها الإمام الخميني وغيره من قادة الثورة ورجالها لإعادة بني صدر إلى رشده، وإقناعه بالعمل ضمن مواد الدستور الإسلاميّ والقانون، فاضطرّ الإمام الخميني أن يعلن عن إقالة بني صدر عن قيادة الجيش (وكان حتّى ذاك التاريخ ينوب عن الإمام في قيادة الجيش) وكان ذلك يعني سلب الثقة عنه ممّا أدّى إلى أن يجتمع مجلس الشورى الإسلاميّ ويعيد النظر في منح الثقة له، ثمّ أعلن مجلس الشورى عن سلب الثقة عن بني صدر بتاريخ ٢٠ خرداد ١٣٦٠هـ ش، المصادف ١٠ حزيران ١٩٨١م، وبذلك سقطت حكومة بني صدر أول رئيس للجمهوريّة في إيران.

كان بني صدر متحالفًا مع منظمة ما يسمّى بـ «مجاهدي خلق» وهي منظمة تحمل الفكر الماركسي مضمونًا مغلّفًا بغلاف من الآيات القرآنيّة المؤَوَّلة كانت تطمح إلى السيطرة على الحكم في إيران وكانت تتلقّى الدعم السياسيّ والمالي من جهات غربيّة ومنها أمريكا، فعلى أثر سقوط حكومة بني صدر أعلنت منظمة مجاهدي خلق الحرب ضدّ الجمهوريّة الإسلاميّة وبدأت باغتيال





الشخصيّات الثوريّة والعلماء، فهمّت أوّل شيء باغتيال آية الله السيّد علي خامنه اي وكان آنذاك عضوًا بارزًا في مجلس الشورى الإسلاميّ وإمام جمعة طهران وممثّل الإمام في مجلس الدفاع الأعلى وفي الجيش، لكنّ الاغتيال لم يسفر إلا عن جراحات تمّ علاجها وتركت بعض الآثار على يده اليمنى التي لم تعد إلى حالتها السليمة الأولى حتى الآن.

وتلا ذلك تفجير مبنى الحزب الجمهوريّ الإسلاميّ الذي راح ضحيّته أكثر من ٧٢ شخصيّة من أكبر شخصيّات الثورة وعلى رأسهم آية الله الدكتور بهشتي الذي كان يعدّ عضدًا قويًّا للإمام الخميني وكان له الدور الأكبر في قيادة الثورة في لحظاتها الحرجة بعد الإمام الخميني، ثمّ تفجير مبنى رئاسة الجمهوريّة الذي راح ضحيّته رئيس الجمهوريّة السيّد محمّد علي رجائي ورئيس الوزراء الشيخ محمّد جواد باهنر إلى غير ذلك من عشرات الاغتيالات والتفجيرات التي أودت بحياة عشرات من رجال الثورة وشخصيّاتها وحتّى قواعدها المؤمنة من رجال الأعمال والناس العاديّين.

هذا، ولكنّ الثورة والدولة الإسلاميّة استمرّت على صلابتها تخطو نحو أهدافها بخطوات ثابتة حتّى استطاعت أن تتغلب على جميع المشاكل والمؤامرات السياسيّة والاضطرابات الداخليّة فاستقرّت الأوضاع السياسيّة في الداخل استقرارًا تامًّا بعد فترة قصيرة من سقوط بني صدر وهروبه إلى خارج البلاد، واستطاعت قيادة الثورة أن تعيد بناء الجيش الإيرانيّ وأن تطوّر استعدادات حرس الثورة وتجعل منه قوّة عسكريّة ضاربة تحمي أمن البلاد داخليًّا وتحرس حدوده خارجيًّا وتقاتل إلى جانب الجيش الإسلاميّ الإيرانيّ كقوّة عسكريّة صامدة وجريئة.

عندئذٍ، بدأت انتصارات القوات الإسلاميّة الإيرانيّة على قوات النظام العراقيّ حتّى انتهى الأمر إلى تحرير كلّ الأراضي الإيرانيّة ونقل خطوط التماس العسكريّ إلى داخل الأراضي العراقيّة بعدما كانت في عمق الأراضي الإيرانيّة.





وفي العشرين من تموز / يوليو ١٩٨٨م أعلن الإمام الخميني وقف إطلاق النار بعد أن لقنت القوات الإسلاميّة الإيرانيّة حكومة صدام وقوّاته دروسًا لا تنسى.

وبتاريخ ١٣٦٧/١٠/١١هـ ش، المصادف ١٩٨٨/١٢/٣١م بعث الإمام الخميني برسالته التاريخيّة إلى زعيم الاتّحاد السوفياتي غورباتشوف تنبّأ له فيها بقرب زوال الشيوعيّة ودعاه فيها إلى التأمّل في الحقائق الدينيّة وأنّ المشاكل التي تعانيها الإنسانيّة المعاصرة ويعاني منها إنسان الاتّحاد السوفياتي إنّما تستمد جذورها من عدم الإيمان بالله. وحذّره من الوقوع في فخّ الهيمنة الأمريكيّة وجاء في هذه الرسالة: «إنّ مشكلتكم الأساس ليست قضيّة الملكيّة أو الاقتصاد أو الحريّة، بل إنّ مشكلتكم الأساس هي عدم الإيمان الحقيقيّ بالله سبحانه، وهي المشكلة التي بدأت تجرّ المجتمع الغربيّ إلى هاوية السقوط وسوف تنتهي به إلى الطريق المسدود»[1].

وبتاريخ ١٣٦٨/١/٨هـ ش، المصادف ١٩٨٩/٣/٢٨م أعلن الإمام الخميني عن عدم صلاحية الشيخ منتظري لخلافته في قيادة الثورة الإسلاميّة ودولتها فاستقال الشيخ المنتظري من خلافة الإمام وكان قد انتخب للخلافة من قبل مجلس الخبراء في تموز عام ١٩٨٣م، وقد أكّد الإمام الخميني في رسالته التي بعثها إليه بهذه المناسبة أنّه ومنذ البداية لم يكن يراه أهلًا لهذه المسؤوليّة وأنّه لم يرغب أن يتدخّل في صلاحيّات مجلس الخبراء وحاول جاهدًا أن ينبّهه بوسائل مختلفة إلى نقاط الضعف في مواقفه وتصوّراته السياسيّة وإلى فساد العناصر التي يعتمد عليها في مكتبه ومدى الخطر الذي سوف يهدّد مستقبل الثورة والدولة من جرّاء النوايا الشرّيرة التي ينطوي عليها المقرّبون لديه، فلم ينفعه النّصح، ولا استطاع أن يتخلّص من شبكة أصحاب المطامع السياسيّة التي أحاطت به والتي كانت تخطط للاستيلاء على مقدّرات البلاد وتعدّ العدّة للنيل من

١ | **آواى توحيد**، نشر مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني.

الثورة الإسلاميّة وأهدافها، فوجد الإمام نفسه مضطرًا إلى إعلان موقفه الصريح بشأن عدم أهليّة منتظري لتحمّل هذه المسؤوليّة الكبرى وهي قيادة الثورة والدولة الإسلاميّة.

رحيل الإمام الخميني

لم تمضِ إلّا أيّام حتّى ساءت صحّة الإمام، واستمرّ به المرض حتى انتقل إلى جوار ربّه راضيًا مرضيًّا مساء الرابع عشر من خرداد ١٣٦٨ هـ ش، المصادف الرابع من حزيران ١٩٨٩ م. وهكذا سكن ذلك القلب الكبير الذي حمل هموم المستضعفين وناضل من أجلهم ودافع عن المحرومين وعبد ربّه وجاهد في سبيله ورفع راية العمل بدينه وإقامة الدولة الإسلاميّة حتّى مدّه الله بالنصر وأعزّ به المؤمنين وأذلّ به الطغاة والجبابرة والمستكبرين.

وقد خلّف الإمام الخميني إلى جانب تراثه العلميّ الكلاسيكيّ تراثًا ضخمًا من الوصايا والكلمات والرسائل التي تضمنت أفكاره السياسيّة والاجتماعيّة والتربويّة التي تعدّ من أرقى ما أنتجه الفكر الإنسانيّ، ومن أروعها وأهمها وصيته السياسيّة والدينيّة التي تضمنت خلاصة أفكاره السياسيّة ومواقفه الفكريّة.

الفصل الثاني: عرض إجمالي للمشروع التغييريّ لدى الإمام الخميني

يمكن تلخيص المشروع التغييريّ الذي تبنّاه الإمام الخميني ودعا إليه في مبدأين أساسيّين، وعدّة مشاريع ميدانيّة، أمّا المبدآن فهما:

المبدأ الأول: بناء الإنسان الفرج بناءً صالحًا مطابقًا لما أمر الله به وهذا لا يتمّ إلا بتزكية النفس وتربيتها وتطهيرها ضمن المبادئ والأصول والتعاليم التي بيّنها **القرآن الكريم** وفصّلتها سنّة المعصومين عليهم السلام. يقول الإمام الخميني:

نقطة البدء في كلّ إصلاح، هو الإنسان نفسه، إنّ الإنسان إذا لم يصلح نفسه ولم يربّها لا يمكنه تربية الآخرين. لقد شاهدتم على مدى حكومة السلاطين وسلاطين الفترة الأخيرة التي أدركها كثير منكم، وأدرك بعضكم بعضًا منها، إنّ الذين تولّوا أمور المسلمين كانوا يفقدون التربية الإسلاميّة ولم يكن لهم من الصلاح نصيب، ولأجل هذه النقيصة الكبرى، جرّوا بلادنا إلى حيث ترون، وجرّوا شعبنا إلى الحالة التي لا يتمّ إصلاحها إلى على مدى سنين. ولأجل ذلك فإنّ علينا جميعًا أن نبدأ من قلوبنا ومن عقولنا. لا بدّ أن نسعى لأن يكون غدنا خيرًا من يومنا. إنّني آمل أن يحصل لنا جميعًا هذا الجهاد النفساني، ثمّ يتلوه الجهاد من أجل بناء البلاد[1].

وللسيّد الإمام الخميني رحمه الله تراث تربويّ ضخم قلّ نظيره لغيره من علمائنا وقادتنا التربويّين فضلًا عن غيرهم، فـ**الأربعون حديثًا**، و**سرّ الصلاة** و**شرح دعاء السحر**، و**الجهاد الأكبر**، بعض كتبه الأخلاقيّة والتربويّة التي تهتمّ بتربية النفس وتهذيبها وإعدادها روحيًّا يبلغ بها إلى المراتب العليا من التزكية والكمال، ولقد كان من أكبر اهتماماته رحمه الله التزاماته العباديّة وخاصة عباداته الليليّة ومداومته على الأدعية والأذكار التي وردت عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام وكان كثير الاهتمام بالمناجاة الشعبانيّة التي رُويت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكان كثيرًا ما يردّد هذا الدعاء: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك».

المبدأ الثاني: بناء المجتمع الصالح وذلك بإقامة الحكومة الصالحة، وهي الحكومة التي تقوم على أساس العدل ومبادئ الإسلام والقرآن

١ | كلمة الإمام الخميني عند لقائه رئيس الجمهوريّة وأعضاء الدولة بتاريخ ٢٣/١٠/٦٠هـ.ش راجع **صحيفة نور**، الجزء ١/ الصفحة ٢٨٢.





العظيم، ولا طريق لبناء المجتمع الصالح غير هدم حكومة الطواغيت وتأسيس الحكومة الإسلاميّة العادلة، يقول الإمام الخميني:

الشرع والعقل يحكمان علينا أن لا ندع الحكومات غير الإسلاميّة تستمرّ على ما هي عليه، لأنّ قيام النظام السياسيّ غير الإسلاميّ يعني عدم تطبيق النظام السياسيّ الإسلاميّ، ولأنّ كلّ نظام سياسيّ غير إسلاميّ، نظام مشرك لخضوعه لحكومة الطاغوت، وأنّنا مكلّفون بإزالة آثار الشرك من المجتمع الإسلاميّ، ولأنّنا مكلّفون بإعداد الأرضيّة الاجتماعيّة الصالحة والمناخ التربوي السليم لتربية أناس مؤمنين صالحين، وهذه الأرضيّة والمناخ يستحيل توفرها في ظلّ حكومة الطاغوت - إلى أن يقول - لا بدّ لنا أن نطيح أنظمة الحكم الفاسدة وأن نزيل الحكّام الخونة الفاسدين الظالمين الجائرين. إنّ هذا واجب المسلمين في جميع بلاد الإسلام[١].

ويقول أيضًا: «إنّ سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تدلّ على لزوم تأسيس الحكومة لأنّه أوّلًا أسس حكومة وقام بإدارتها كما يشهد به التاريخ - إلى أن يقول - ولأنّه عيّن الحاكم من بعده...»[٢].

وأمّا مشاريعه الميدانيّة فكثيرة ويمكن تقسيمها إلى مشاريع مرحلة الثورة ومشاريع مرحلة الدولة، أمّا مشاريع مرحلة الثورة فنلخّصها في ما يلي:

١- اعتماد جهاز المرجعيّة الدينيّة محورًا للعمل السياسيّ والتعبويّ.

٢- اعتماد الجماهير والقواعد الشعبيّة سندًا أساسيًّا في العمل النهضويّ.

٣- تفعيل الأجهزة والتنظيمات الدينيّة والشعبيّة واستخدامها يدًا ضاربة وعضدًا فاعلًا في ميدان العمل السياسيّ الثوريّ.

١ | الإمام الخميني، **الحكومة الإسلاميّة** (طبعة بيروت ١٩٧١ م)، الصفحتان ٤٠ و ٤١.
٢ | المصدر نفسه، الصفحة ٢٨.

٤- تكوين قاعدة فكريّة فاعلة في صميم المجتمع تتبنّى نشر أفكار القيادة المرجعيّة وأهدافها السياسيّة الفكريّة.

٥- تفعيل الجهاز العلمائيّ المتمثّل في شبكة علماء البلاد المختلفة واستثمارها كحلقة ربط بين القيادة المرجعيّة والقواعد الشعبيّة.

٦- اعتماد الطبقة المثقّفة الجامعيّة وزجّها في عمليّة التغيير الثوريّ إلى جانب الحوزة العلميّة وشبكة العلاقات الدينيّة.

٧- تجنّب الاصطدام بقوى الجيش ومحاولة تحييد الجيش أولًا ثمّ التأثير عليه وجلبه إلى صف الثورة، واعتماده كقاعدة من قواعد الثورة.

٨- اعتماد المرأة كطاقة حركيّة ثوريّة مؤهلة لأن تلعب دورًا طليعيًّا على ساحة العمل الثوريّ التحرريّ.

٩- اعتماد أطروحة الدولة الإسلاميّة وولاية الفقيه كإطار محدّد للعمل السياسيّ الثوريّ وإعطاء فكرة محدّدة عن طبيعة النظام السياسيّ المنشود.

وأمّا مشاريع مرحلة الدولة فهي كثيرة تشمل جميع مؤسسات الدولة الإسلاميّة على اختلاف أنواعها غير أنّ المقصود هنا الإشارة إلى الخطوط العريضة التي جرت ضمنها عملية تأسيس الدولة الإسلاميّة، وهي باختصار:

١- استحداث مؤسسات تحمل قيم الثورة وتتبنّى أهدافها سواء على صعيد توفير الأمن الداخليّ والخارجيّ أو الإعمار والبناء أو على صعيد الإدارة، أو القضاء، أو التقنين.

٢- تفعيل القوى والكوادر الضارية في مرحلة الثورة، للقيام بمهام إسناد الدولة وحمايتها وخدمة أهدافها في مرحلة الدولة.

٣- استخدام أجهزة الدولة السابقة بعد تصفيتها من العناصر






المضادة للثورة أو الحاقدة على الإسلام وإصلاحها وتغييرها وفق ما ينسجم مع أهداف الدولة الإسلاميّة.

٤- تشريع النظام الدستوريّ وفق الشريعة الإسلاميّة وبالصورة التي تضمن تطبيق الشريعة في كلّ مرافق الحياة.

٥- تأسيس المجتمع المدنيّ الإسلاميّ وإقامة مؤسساته المدنيّة بما ينسجم مع الدستور الإسلاميّ وأهداف الثورة الإسلاميّة وقيمها.

الفصل الثالث: أهمّ إنجازات الإمام الخميني

الواقع إنّ عظمة الرجل وسعة إنجازاته تجعل من الصعب لمن يدرس حياته استيعابه من جهة، كما تجعل من الصعب أيضًا انتقاء بعض منها، لأنّها جميعًا إنجازات عملاقة يصعب تجاوزها أو المرور السريع عليها، ومهما يكن من أمر فإنّ من الممكن القول إنّ أهمّ إنجازات الإمام الخميني قد يمكن تحديدها في ما يلي:

١- بعث الأمّة الإسلاميّة من جديد، وبثّ روح الحركة والحياة والأمل فيها، فقد أصابت الأمّة الإسلاميّة بعد سقوط الدولة العثمانيّة وخاصة بعد اغتصاب أرض فلسطين والانتكاسات التي مُنيت بها في مواجهتها للعدو عسكريًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا، حالة من اليأس والخذلان والضعف والشعور بالصغار والذل والتبعيّة، قلّ نظيرها في سائر الأمم وفي سائر الأزمنة والعصور.

٢- وكانت ثورة الإمام الخميني كنفخة روح في جسد الأمة بعثتها من جديد وأعادت إليها هويتها الإسلاميّة، وشعورها بالقوة والعز، وأعادت إليها ثقتها بنفسها وبدينها وبعزتها وكرامتها.

٣- إعداد وتربية قاعدة شعبيّة مؤمنة صامدة تمثّل الإسلام فيها عقيدة وسلوكًا تجاهد في سبيل الله لا تخاف لومة لائم، إنّ هذه القاعدة الشعبيّة الواسعة التي ربّاها الإمام هي التي صمدت





في وجه الأعاصير التي هبّت على الثورة وقيمها وعلى الدولة الإسلاميّة ومؤسساتها ومصالحها، والتي كادت لولا صمود تلك الصفوة الخالصة المؤمنة أن تقضي على حياة الثورة وأهدافها. وما زالت هذه القاعدة الشعبيّة الصامدة هي الضمانة الأقوى لاستمراريّة الثورة وصمود الدولة.

٤- القضاء على أسطورة فصل الدين عن الدولة أو السياسة، والبرهنة نظريًّا وعمليًّا على عدم الفصل بينهما إسلاميًّا، بل وبشريًّا على أساس ما يحكم به العقل من استحالة إقامة العدل الاجتماعيّ بمعزل عن الدين ورعاية السماء.

٥- إحياء فكرة الوحدة الإسلاميّة، والتمهيد السياسيّ والاجتماعيّ لها بل وإيجادها عمليًّا على كثير من الأصعدة داخليًّا، والتمهيد لها خارجيًّا، ووضع الأطر العمليّة لوحدة الأمّة وتأسيس المؤسسات المهتمّة بها والمتابعة لخطواتها التنفيذيّة.

٦- الإطاحة بنظام الحكم الملكي العتيد في إيران بالرغم من إسناد معظم القوى الكبرى له، إسنادًا بلا حدود، ومن أعظم ما ينبغي الالتفات إليه هنا أنّ الإمام الخميني لم يعتمد في ثورته الموفقة هذه على تنظيم سياسي معيّن، ولا على قوة عسكريّة أو اقتصاديّة داخليّة أو خارجيّة، ولم يستخدم إلا الكلمة المؤمنة والتوعية الثوريّة النابعة من الاخلاص لله سبحانه والشعور بالمسؤولية الشرعيّة والوجدانيّة.

٧- إقامة النظام الإسلاميّ على أساس من دستور منبثق من الكتاب والسنّة وبناء الدولة الإسلاميّة، وتأسيس مجتمع مدنيّ إسلاميّ جديد يحكمه نظام إسلاميّ في كلّ مرافق حياته.

الفصل الرابع: نظرة تقييميّة لأطروحة الإمام الخميني وإنجازاته

لا شكّ أنّ الأطروحة التي جاء بها الإمام الخميني، وإنجازاته التي






قدّمها للبشريّة وللمسلمين، تستحق كثيرًا من المراجعة والدرس للاستلهام والاعتبار أولًا ولتصحيح الأخطاء المحتملة وتطوير العمل في مراحله المستقبليّة ثانيًا.

وليس من شكّ أيضًا أنّ من أهمّ ما تتميّز به أطروحة الإمام وإنجازاته أنّها أثبتت جدارتها وعمليّتها على أرض الواقع، ولا نعرف أطروحة استطاعت أن تنال من التوفيق جزءًا يسيرًا ممّا بلغته أطروحة الإمام وأفكاره.

إنّ هذه الميزة تفرض على الباحث أن يخضع إجلالًا لعظمة هذا الرجل وأن يقرّ له بالعبقريّة في شتّى نواحي شخصيّته الفذّة ولعلّ الزمن الآتي يستطيع أن يفسح المجال أمام الرؤية النقديّة الواقعيّة بأحسن ممّا يتوفر لدى الباحث اليوم وهو يرى أنّ تجربة الثورة الإسلاميّة ودولتها هي خير تجربة شهدها الإنسان المعاصر على صعيد الثورة والدولة، مهما انطوت عليه هذه الثورة والدولة من ملاحظات سلبيّة جزئيّة قد يصعب أو يمتنع تجاوزها ضمن أيّة تجربة بشريّة أخرى تخضع لمقاييس الممكن ولا تخضع لرعاية معصومة يسدّدها وحي السماء.

نسأل الله سبحانه أن يوفقنا في المستقبل القريب لمراجعة هذه التجربة المباركة مراجعة نقديّة تقييميّة تناسب حجم التجربة وعظمة الإنجاز.



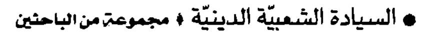


سلسلة
أدبيّات النهوض

- العبادة والعبوديّة في الرؤية والسلوك عند الإمام الخميني ♦ حسن يحيى بدران
- عاشوراء وخطاب المقاومة الإسلاميّة ♦ علي مهدي زيتون
- الشعائر الحسينيّة من المظلوميّة إلى النهوض ♦ شفيق جرادي
- على ضفاف الفرات ♦ إبراهيم أمين السيّد
- مجتمع المقاومة ♦ نعيم قاسم
- الشيخ عبد الحميد بن باديس ♦ الياس جوادي
- الثورة الإسلاميّة في إيران: ظروف النشأة والقيم القياديّة ♦ منوشهر محمّدي
- الخطاب عند السيّد حسن نصر الله ♦ احمد ماجد
- الحداثة والمقاومة ♦ طه عبد الرحمن
- الإمام ونهج الاقتدار ♦ شفيق جرادي
- قيم النهوض: الحرّيّة العدالة الاستقلال الوطنيّ ♦ مرتضى مطهّري
- النهوض الحضاريّ في فكر الإمام موسى الصدر ♦ غسّان فوزي طه
- القدس في الوعي المقاوم ♦ بلال حسن التلّ
- مباني إنتاج الآخر في العقل الإسرائيليّ ♦ حسين سلامة
- الدولة والمقاومة في ظلّ الأوضاع الدوليّة الراهنة ♦ مجموعة من الباحثين
- المقاومة: جدليّة الحقّ والقوّة ♦ مجموعة من الباحثين
- الشورى ونظم الأمر ♦ عليّ يوسف
- الحرب على غزّة ♦ مجموعة من الباحثين
- المرجعيّة الدينيّة والمقاومة ♦ عبد الساتر الموسويّ
- إشكاليّة الوعي والذاكرة العربيّة ♦ بيان نويهض الحوت
- الرؤية العلميّة لدى الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ عبد الله زيعور
- الفقه السياسيّ في فكر الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ مجموعة من الباحثين







- السيادة الشعبيّة الدينيّة ♦ مجموعة من الباحثين
- الحاكميّة: دراسة في المفهوم وتشكّله ♦ احمد ماجد
- صناعة الأمّة الإسلاميّة: الإمام الخامنئي (حفظه الله) وقيادة المشروع الإسلاميّ الاستنهاضي ♦ عبّاس نور الدين
- حقوق الإنسان من وجهة نظر الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ منوجهر محمّدي
- الفكر السياسيّ عند الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ مجموعة من الباحثين
- المسلمون بين المواطنة الدينيّة والمواطنة السياسيّة ♦ عليّ يوسف
- القدس: الموقعيّة والتاريخ ♦ مجموعة من الباحثين
- المرأة في فكر الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ مجموعة من الباحثين
- عاشوراء: الحدث والمعنى ♦ محمّد مهدي الآصفي
- السيادة الشعبيّة الدينيّة: إشكاليّة المفهوم ♦ مجموعة من الباحثين
- السيادة الشعبيّة الدينيّة: معالجات في التطبيق ♦ مجموعة من الباحثين
- الهواجس الثقافيّة عند الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ إعداد مركز صهبا
- أساس الحكم في الإسلام ♦ محسن الأراكي
- الإسلام وتهمة الإرهاب ♦ عليّ يوسف
- خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ♦ محمّد باقر الصدر
- وعي المقاومة وقيمها ♦ شفيق جرادي
- سنن القيادة الإلهيّة في التاريخ ♦ محسن الأراكي
- روح التوحيد (رفض عبوديّة غير الله) ♦ الإمام الخامنئي
- دور القرآن في بناء نهضة الأمّة ووحدتها ♦ مجموعة من الباحثين
- نهضة الذات ♦ محمّد مهدي الآصفي
- الإيمان ومستلزماته ♦ الإمام الخامنئي
- الإسلام في مواجهة التكفيريّة ♦ شفيق جرادي
- التوحيد وآثاره ♦ الإمام الخامنئي
- دراسات في الدولة والسلطة ♦ محمّد طي
- النبوّة وضروراتها ♦ الإمام الخامنئي
- أخلاقيّات العلم عند الإمام الخامنئي (حفظه الله) ♦ عبد الله زيعور
- الولاية وأبعادها ♦ الإمام الخامنئي
- يوم الفداء مقاربة اجتماعيّة - تاريخيّة لإحياء شعيرة عاشوراء في لبنان بين 1860-1975 ♦ د. غسان طه
- الصحوة الإسلاميّة ♦ محسن الأراكي